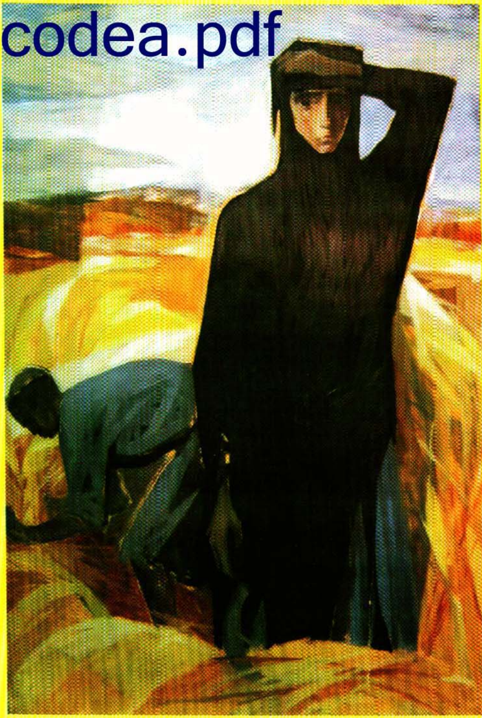
شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية الزناد

هذا الكتاب

رباعية ابو گاطع:

عمل أدبي روائي للكاتب المعروف شمران الياسري ، كتبه في سبعينات القـرن الماضي ، وهو بمثابـة توثيق لحقبة زمنية من تاريخ العراق منذ عشرينيات القرن الماضي وحـتى منتصف السـتينيات ، يسـتعرض فيه المؤلف الحراك السياسي والاجتماعي لشعب مقهور ، خرج من الاحتلال العثماني ليخلفهُ احتلال بريطاني ، ثم لنظام ملكي وجمهوري وحكومات متعاقبه لم تكن بمستوى طموح الجماهير في العيش برفاه وسعادة.

رباعية ابو گاطع:

وثيقة تاريخية كتبت باسلوب أدبي روائي ممتع ، كاتبها خرج من رحم المعاناة الشعبيه ، ولهذا جاء السـرد سلساً ، و الرؤية تجمع بين الواقعية والخلق والابداع..

تقدم دار الرواد للطباعة هذه الرواية باجزاءها الاربعة خدمة لجمهور القراء وبقصد اشاعة الثقافة الادبـية الملتزمة.

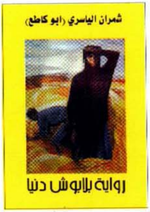
تنويه :

قامت مجلة الثقافه الجديده بطرح فكرة طبع هذه الرواية على حسـاب القـراء بـعد ان رفضت اجهزة النظام السابق تعضيد نشرها ، فكانت الاستجابة سريعة ، اذ حجز القراء نسخهم ودفعوا ثمنها قبل الطبع, حـرصا على صدور هذا العمل الادبي.

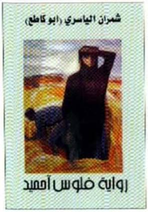
يمكن تفسير هذا الموقف ،بأنه تحد للسلطة ورغبة في أن يرى هذا العمل الادبي النور ، رغم كل العقبات ،كما يدلل على ثقة القراء بالمؤلف ذي الشعبية الواسعة .. وكفاهم ان المؤلف هو ابو گاطع

انها ثقة ومحبة الجماهير ..وها هي مطبعة الرواد تعيد تجديد هذه الثقة بـالكاتب والرواية خدمة للحـركة

رباعية ابو كاطع







شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٧

الكتاب : الزناد

المؤلف : شمران الياسري

الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢

الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧

العراق / بغداد / الرواد

نبذة عن حياة المؤلف :



* في بيئة ريفية بمحافظة واسط – قضاء الحـــي – ولد شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القـــرن الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ، الا أن نحـــداره من اســـرة علوية (من الســـادة) أعطى عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحـــيط الذي يعيش فيه ومنحهٔ تعاملاً خاصا من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياســـري المدارس الحـــكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ) وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمثقفين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم رموز الثقافه والعلم.

* كانت لهٔ زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسه ، الأمر الذي حـــفزه أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القـــراءة والكتابـــة لاتقل عن خريجي المدارس الثانويه ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقـــائه المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

ـــــــ بدأ يتعلم اللغه الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، أضافة الى تعلم مبادئ المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال التجارية بصفة محاسب.

ـــــــــــ كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و الصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحـــيان للأختفاء ، منعته من تحقـــيق هذا المشروع.

ـــــ اصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبح لديه عمود يومي يكتبه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحية ومشكلات الريف ، اما برنامجه الاذاعي (احجيها بصراحه يبو گاطع) فقد كان خطا أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيريه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

* عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنقل بين سجن بغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفيا وسافر الى أوربا ليعمل مندوباً لوكالة الانباء الفلسطينيه في (براغ) وتوفى هناك في حادث سير.

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٩٨١/٨/١٧ بعيداً عن وطنه وأسرته ، وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينين ببيروت كي يقترب أكثر من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل السلطة آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته..

* ومع انغماس (ابو گاطع) في العمل الصحفي ، الأأنه كان يردد بأستمرار .. الرواية الرواية أنني اعشق العمل الروائي ..وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

الزناد

شمـــران اليـــاســـري

روايـة

الزناد!

الجزء الاول من الرباعية

الطبعة الاولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز. فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت براعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا بعد ان عاد المنفيون عام,٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-.

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روبية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياسري- ابوكاطع) اديبا عظيما عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامجه الاذاعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة والاعلام (سابقاً) لتعضيد نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدما وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطأ الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وأدعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحديا فطريا من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو كاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ,١٩٦٣

كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالاً لاحداث بعينها

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (إبن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد..

ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل ويُغيِّر مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة

لقد عاش (ابو كَاطع) في الريف، تعَلم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي

إن ما تعَلمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها ولسوف يُعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفَرد حد الإبداع في عرض صورة للريف وإخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة.

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها، وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محض حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزاءها، وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها

وخلال عام ٢٠٠٦ إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو كَاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والربح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخلف جنباً الى جنب مع المدينة. بعمالها ومثقفيها وطلابها يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القاريء العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أُحمَيد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخوصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافيه وأخلاقية واسعة

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع). واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه إبن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ٢٠٠٣ فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعادت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع المتنبي.

سيبقى (شمران الياسري - ابو كاطع)، متفردا" في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فني وأدبي لم يتح لمثله.. وسيبقى الريف العراقي قضية كبرى ومصنعاً هائلاً لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخلّاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في انتاج العمود الصحفي اليومي، ثم في انتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الياسري
شباط/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

تـوالت الاكف تزيـح الرمـاد عن وجه النـار. أوقف مـداعبـاته للمسبـحة. شغلت اصـابعه بـ (السبيل) ليحشوه تبغا ساد صمت لا يقطعه الا عزف الريح على حبال الربعة. تسلل الهواء باردا، عبر نسيج الستار المهلهل، مثل شتيمة ماكر غلفها بموعظة. اقترب الرجال من بقايا النار. تحركت المسبحة فـوق كف حسين. لابد انه عـاود الانشـاد ثـانية- يسـتعذب ترديد الشعر، لا فـرق ان كان لـنفسه أو للاخـرين. بعد بـيت شعري مـؤثر تتـداعى ذكـريات مـطمـورة ولـربمـا حفـزته الـذكرى للـبحث عن قـائل الـبيت، يـود لـو يعـرف الشـاعر. مرارا تمنى لو يناقشهم وجها لوجه، يستوضـح او يصـحح انه الان يتذكـر (ابو الغمـسي) لو ادركت زمـانه وعايشته لسـألته: اخبرنـي يابطل عصرك وشـاعـر زمانك، لماذا تـحمس بعضـهم لرواية شعرك، واصر آخرون علـى انه منسوب اليك؟ أتـراهم يظنون الـشعر لايناسـب بطلا من امثالك!؟ تـرى ما هـي الحكمـة في أن يتخلـى شاعـر عن مثل هـذا الشـعر الـرائع، ويتطوع في وضـع اسمك عليه!

خفق الـستار من ناحية الـشمال، كأن الريح تستـأذن بالدخول، فامتلات ربعة سعدون ببرد كانون. أدركوا من حركة المسبحة أنه اختتم بيت الشعر بهوسة. ثمة نجوم تضيء، تتسلل خيوطها الى مـواقع اجسادهم من خلال نسيج الربعة ومستـطيل الباب. بكى الرضيع خلف سـتار القاطع بين الربعة وبيت العائلـة، ثم سكت بعد ان تنـاوشت شفاهه الرقيقة حلمة ثدي. عندها ترنم حسـين بابيات من الـشعر ، فـارهف الرجـال السمع، لـم يتبينـوا غير الهوسـة: (ذبـوله ارغيف وهـز ذيلـه!)، ثم غلفهـم الصـمت. كف حسـين عن مـداعبـة المسبـحة. شغله حـوار مع نفسه: كـأن الُبرد يعـوض عن المـآتم

والمواعظ، فلا تلوح عمائمهم الا حيث يشتد ريح السموم. وزاد الصمت في برودة الجو، وكثافة الظلمة: لو بعث يزيد ثانية لسار خلفه الباكون على الحسين. وفي جميع الا حوال لابد من حسين شهيد يبكونه.

يئس (غافل) من مبادرة سعدون بن مهلهل، وتأكد له انصراف خلف لنفسه، فطلب ان يبدد حسين الوحشة بشئ من الشعر، تاركا له حرية الاختيار. تنبه خلف في اللحظة المناسبة، ود لو يسمع الهوسة الجديدة مستدركا باعجاب ظاهر:

- حسين.. بروح مهلهل. ياهو اليجيب لك الهوسات والاشعار من الفرات.. لهناه؟

ضحك حسين بانتشاء.. واجاب:

- الشاعر عنده ملايچه اتسولف له!

ارتعب غافل وعيناه تتسعان، تنتقلان في الظلمة بخوف:

- بسم اللّه الرحمن الرحيم.. يا اللّه دخيلك من الملايچه!

رد حسين بتهكم..

- لو اتحط لك مخيط بعكالك عن الملايچه.. أحسن لك.. وروح والدك!

- ياخويه جوز من هلسالفه.. گول.. گول البيت الراده خلف..

تراقصت حبات المسبحة على كفه، ثم طواها حول معصمه وراح يفتل شاربيه. لم يتبينوا تعابير وجهه في الظلمة. كان صوته رخيما وهو يقرأ:

اكلن لچ يجامعة الحسن عيناچ

فن كوكز وديلي بعسكره يدناچ

كون اهلچ جفوچ احنا بطرب جيناچ

خل يمن گلبج يرعيه

إهتز رأس خلف اعجابا ، ورددت شفاهه مقطعا مبتورا

(عسكره يدناچ.. بلا بوش دنيا!).

هم غافل أن يستزيد من الشعر، الا أن هاجسا ما جعله يصمت، اراد التأكد اولا، ان كان سعدون بن مهلهل يستمتع بما يقال! ألفاه منشغلا عنه مع نفسه خيم السكون مرة اخرى. غرز خلف (خاشوكة النار) في حوض الموقد ، ليستخرج بقايا الجمر المدخر. أحس الخيبة اذ وجد الذخيرة بضع جمرات مبعثرة بين الرماد، فتساءل متوهما:

- يمكن الليلة تعللنا اهواي؟

ثم لوى رقبته وتطلع من باب الربعة، ليرصد الوقت من مواقع النجوم فأجابه حسين:

- لا ، ولا لك لوا، ماسهرنا اكثر من كل ليلة، لكن النار طفت چي لنها نوبة غافل.. ومعلومك بين غافل وبين النصوحه عداوه.. بگلبه عشرين محلة يهود!..

رفع خلف ذراعيه، وقرب وجهه من وجه حسين ليستجلي ملامحه.. على اشعة باهتة تصدر من نار تنطفئ:

- عفيه! لا عاب حلكك.. غافل صدگك ايزاغل.. بلابوش دنيا!

لم تقف التهمة حائلا بين غافل وبين ان يضحك، واقسم بـ

(العباس ابو فاضل) أنه جمع حطبا اكثر مما يجمعون كل ليلة. ثم ختم دفاعه يندب حظه:

- شغل غافل ما يعجبكم. دوم.. دوم.. حتى من يجيب له كرشه تطلعون

بيها عظم!

لم يفلح ضجيجهم في اخراج سعدون من صمته فقد استحوذ عليه النبأ الذي تداولوه في البداية ، تملك أحاسيسه ، وصرفه عما حوله. استبدت به رغبة ان يسمعه مرة اخرى. طلب أن يحكيه (خلف) دون زيادة او نقصان..

رواه للمرة الثالثة: عندما التقيت به عصرا، قال لي أن ابن طرفه عاد من بغداد يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وقال ان شيخ آل صگب نال هو الاخر ألف روبية.. وثمة شيوخ من مناطق اخرى لم يكن حظهم من العطاء اقل.. تذكر حسين ليلة نصب كمينا للصوص بعيدا عن بيته. كانت كلاب القرية تتعارك حول جيفة حمار نافق.. مرق الضبع أمامه قيد خطوات، مستهينا بالكلاب انقض على الجيفة وحملها بين فكيه عنوة. ثم ساءل نفسه:

أحقا ما يقال أن رائحة الفطيسة تجتذب الضبع من مسافة عشرين ألف ذراع!؟

ألح سعدون مستزيدا

- ياجماعة.. هالانگريزي، شنهو مگصده يطي هاكثر افلوس؟

قال غافل:

- يشتري بيها زلم وروح مهلهل، چاشنهي هيه مضمومه!

وقال خلف:

- ما يخسر بيها شي.. النوط ابو ميه خط.. يطبعونه بديهم.. وبلابوش دنيا!

هيأ حسين اجابة على هذا النحو (تموت گحيله من بخت چلب!)

وسرعان ما استبدلها بقوله:

- هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله!!

ضاق سعدون بهذه المزحة، تمنى لو يناكده بهذه العبارة او بمثلها: أتى على الدنيا حين من الدهر حكمتها حتى الحريم، ولم يحكمها الشعراء أو رواة الشعر ليوم واحد واهمل اجابته على نحو واضح وعبر عن ذلك بموافقته لخلف: على ما عديت الانواط اخطوط ويسوونها بديهم إشخسرانين بيها.؟

حين ادرك غافل ان سعدونا يطرب لهذه النغمة، اخذ يكررها على نحو اسرع: اراهن على ان بينك وبين الالف روبية اياما معدودات، ومسافة لا تتجاوز رمية عصا فانبرى خلف مقاطعا، يذكره بحقيقة ما كان لها ان تغيب! أن الانگليز حين يكرمون ابن طرفة فليس ذلك حبا بنقراش الجدري الذي يشوه وجهه، انما من اجل عشيرته. واذا كان ذلك كذلك، فعشيرة سعدون بن مهلهل اكثر عددا. وعند المفاخرة، أرفع شأنا والانگليز قبل هذا وبعده، شياطين لا تنقصهم معرفة الاحساب والانساب. وكان حسين يترنم بـ (هوسة) من شعر ثورة العشرين، ولما تزل احداثها طرية في الا ذهان، لا تفصلهم عنها سوى ثلا ثة اعوام:

واوي الكوت اجا متعني ومتمور
يكول اشها لربيعه اشكثر بيها اكسور
واوي العارضيه ايگله من ياخور
شيّم اهلك بلچي ايشبعونك!

اهتم سعدون بتنظيف سبيله، مستكينا الى أمل اساسه استنتاجات خلف

وبشرى من غافل ليس لها ثقل في الميزان مرددا في سره:

- خير الاستنتاجات ما تقوله أنت ياحسين. تتحدث وكأن حجب الغيب قد رفعت عن ناظريك، لو أقلعت عن الركض وراء الشعراء!

- ألم تسمع احدهم يقول: (اشلون ابن الله اتطگونه؟) ويرد عليه آخر: (من كونه ابن الله ابن اخته آنه). تناول كمية من التبغ وراح يملأ سبيله، ولما قارب الحافة، دس ابهامه اليسرى في فم السبيل، وضغطه بعصبية: ربما لعب الخبيث ابن طرفة لعبة، وقال عني ما لا يسر امام الحاكم الانگليزي وجعله يستبعدني من قائمة الشيوخ. لن ينسى ذلك اليوم المشهود وقد مرغنا وجوههم بالوحل. عقل حسين ركبته فاقتدى به الاخرون. وضع راحته اليمنى على السبيل وقد امتلأ تماما حركها ذات اليمين وذات الشمال، حتى طحن التبغ: اراد لها ابن طرفة ان تكون الحاسمة. لن تشب بعدها لعشيرتنا نار- وسوس كالشيطان لصلال، وكان صبيا واغرى آل بدر بوعود خلابة- وعليه دارت الدوائر.. بك بدأ- ياحسين - مجد الانتصار، وبك ختم، هكذا أسر لي المرحوم. رفع صوته في محاولة لاستدارج حسين، وبالتالي معرفة توقعاته:

- ابن طرفة خبيث. اعرفه واعرف ادروبه وچاد سولف عني- بالموزين جدام الحاكم الا نگريزي. ابن طرفة ما ينسى ذبح العملة.. السويناها بيهم.

كف عن معابثة المسبحة. رمق خلفا بنظرة احترام أججتها الذكرى. تخيل وقفته يوم المعركة حين خرج من النهر، ووقف على المترب ليزرع شيئا من الشجاعة، في قلوب الذين انخلعت قلوبهم هلعا و(غافل) واحد منهم- ردد خلف هوسته يومذاك بصوت يتدفق حرارة واصرارا ممسكا بندقيته

من وسطها ملوحا بها عاليا.. (كل حي بالدنيا اعليه موته) وكأن لعلة الرصاص زغاريد عرس، وشظاياه من حوله (ملبس واهليه) آه يا خلف لولا قلبك الطفولي- بيدر حنطة بلا حراس- حتى لكأنك تهوى أن تكون المخدوع ابدا، المكذوب عليه دائما تماسك الرجال. استمدوا العزم من (هوستك) طوبى لمن ملك زمام نفسه عند زخة الرصاص الاولى- بعدها تعتاد اذناه ازير الرصاص، ويتباطئ نبض القلوب. أن تعقل ركبتيك في الخندق، فذلك شئ رهيب، لكنه شرط الانتصار. لو فرض الثوار على رؤسائهم أن يعقلوا الأرجل في الخنادق الامامية، لما فشلت الثورة، ولما سيطر الانكليز. لكنهم كما وصفهم المهوال (بلّشها ونام ابسردابه).

من الانصاف ان يذكر مهلهل بخير. لقد استعاض بشيخوخته عن عقل ركبته كما فعلنا نحن الشباب- حرص على سعدون فجنبه الخطرين: خطر الموت وخطر الهزيمة- وكلاهما أمر من الحنظل. قال بحكمة ودهاء: ابق في القرية فلا يصح تركها خاوية، ولا ينبغي أن تشعر النساء بالوحدة. فلتحسد ياسعدون حظك- اصيل على مربطه، لم تغربله ساحة السباق. فلا أنت قتيل مع صكر، ولا انت هارب مع (احميد ابو البينه).

التقط سعدون جمرة من الموقد. تحركت فوق راحته مثل (هولة) تتقاذفها عصي اللاعبين. أمال كفه فاستقرت فوق التبغ بضربة محكمة اصابت الهدف. سحب نفسا عميقا ، ليحرق التبغ، وبه شوق لسماع نبوءة حسين..

قال غافل:

- هاي قسمة ونصيب. وروح مهلهل موش بيد ابن طرفه لو الرزج بيد ابن آدم چان باع الهوا بيع.. وقال خلف: الانگريز ما يمشون براي واحد..

الهم رايهم. وعرض حسين رايه على صورة تساؤل: هل تتعفف انت ياسعدون عن سلقه بلسانك لو سئلت عنه ذات يوم؟ وهل تتردد في جلد ابن طرفه (لو عرض علباه للراشدي!) واذا سمحت لنفسك أن تفعل بالخصم ما أنت قادر عليه، فلا تستغرب، ولا تستنكر أن يكيل لك الصاع الذي تمنيت أن تكيل به!

ضجوا بضحكة قصيرة، وأماتها صمت مفاجيء. تشاغل كل منهم بتهيئة سبيله، نفخ غافل حزمة دخان رطبة في وجه سعدون وسأله بلهجة تجمع بين الجد والهزل:

– سعدون بروح مهلهل لو اطوك الف ربية.. شتسوي بيهن؟

أجاب سعدون بلهجة الواثق:

– بسيطه! آخذ الخمس. والبكايا للعشيره.

لم يأت بجديد. فقد تعارفوا منذ زمن ضاع تأريخه، على أن تكون حصة مهلهل ومن بعده سعدون، الخمس من الغنيمة والسرقة وغلة الارض. وما كان ذلك دون مقابل، فهو الذي يواجه الجابي ويدفع الضريبة بعد أن تجمعها العشيرة. وفي بيته ينزل الجباة، يحصون المواشي ويأخذون (الكوده) كل عام. واليه أوكلوا قضاء العشيرة، وهو سفيرها لدى العشائر الا خرى. في ربعته يشربون القهوة ويبددون الوقت الزائد، فالربعة ناديهم ومسجدهم ودار ضيافتهم.

قال خلف بثقة:

– اسمع. حصتي من الالف ربية، زبون شال ترمه.. وبلابوش دنيا!

فردد حسين هوسة (ومن يعرض لك جاون جيبه!).

ولم يدركوا مغزى الهوسة. عرفوه هكذا، يردد المأثور او بيت الشعر في أي وقت شاء، ولا يجيب عن اسئلتهم. لماذا! ولمن! وكيف! ومع ذلك لا يجرؤون حتى على التفكير بان حسين يلقي الكلام على عواهنه، ولطالما أسموه في الحضور والغياب وتبعا للمناسبة: (الداهية.. أو الحكيم.. أو الجنّي)

انبرى غافل بحذر وتردد، مدركا أن ما يدعو له غير مألوف، وانه يخطو في طريق لم يدشن من قبل تسوقه رغبة لكسب ود سعدون والتقرب اليه، ولعل حلاوة الاتيان بالجديد والمثير، سبب من اسباب اقتراحه: ينبغي أن لا تبدد اكرامية الا نگليزي وتضيع بين مئات الا يدي. لا تنفع هذا ولا ذاك ولا تترك أثرا ملموسا بيننا الذي اراه ان تخصص لشيء مهم يعنى الجميع امره.

رفع رأسه نحو سقف الربعة، واشار باصبعه الى ثقوب يتسع الواحد منها لمرور عصفور، واردف: هذا ما يلوگك لبيت مهلهل، حظ العشيره وبختها اريده وكل العشيره تريده جديد وكاشخ گاعه وسماه، كل الفليان شغل الحي والسجاجيد حياچة بني لام) وعدة الگهوة (شطراوية تتلامع مثل النجوم).

توقف حسين عن العبث بسبحته. تذكر راعي الابل، في الطرف الغربي من هورة البترا انطلق كلب صيده وراء أرنب مذعور. ركض.. ركض بعيدا.. غاب عن مدى البصر. رجع السلوقي مجهدا يحمل الارنب بين فكيه.. استل البدوي خنجره، وحز رأس الارنب، ثم رماه للسلوقي... تلقفه بنهم ضحكت وقلت: بلابوش ياسليت.. اكل صيدك وحدك!.. رد البدوي

لا يا عم لوحده يكتله اليوع!.

حاول غافل أن يتبين أثر اقتراحه على وجوه أصحابه. ما كان ذلك سهلا ، وقد انطفأت النار وخيم الظلام. تعجل خلف في اعلان موافقته، وقد اذكى حماسته، واستثار نخوته، اقتراح غافل، الذي انصب على تجديد ربعة مهلهل ووجد حسين نفسه يؤيد الاقتراح.

امتدت يد سعدون الى (خاشوكة النار) شطر كومة الرماد، فتلألأ الجمر المطمور: فكرة جيدة ورائعة، والامر يختلف تماما عما تعارفنا عليه.. هم يستخرجون الخمس من الغلة والغنيمة والمسروق، ولم يحدث أن جئت بغنيمة. انه لامر يستحق التفكير، ولكن ما دام السمك في مائه، ولم يخرج الامر من الممكن الى الواقع، فلأتحدث بلغة اخرى. اتخذ من "الخاشوكة" متكئاً، وتنحنح توطئة للكلام. ثم توجه نحو غافل كالمعاتب: ما دام ابناء العشيرة يقاسمونني كل شيء ولم يجرؤ أحد منهم حتى الان، على منع الخمس.. خذ مثلا ولدك عبيد عندما سلب العطار قبل اسابيع. لم يخف حتى إبر الخياطة والحناء والبخور، وصغائر الاشياء التي حفل بها (خرج) العطار، بل حملها جميعا الى بيتي لاستخراج الخمس- واذا كان الحال على هذا المنوال ، لماذا تقترح عليّ حرمان العشيرة من حصتها؟ أتريد أن أكون مثل (أبو بيوضي)؟

الكل يعرف حكاية الرجل الضعيف الذي يتفضل عليه الصيادون بين يوم وآخر، مما يصطادون. فلما رمى القدر ذات يوم بين يديه طائر البيوضي، وهو صيد هزيل لايكبر الحمامة ولايدانيها في طعم لحمها، وقف بين اكواخ الصيادين مجاهرا:

- ياربعنا   اسمعوا واعلموا.. الحاضر يخبر الغايب ، بطلت الطعمه بين الجيران من عين هاليوم!

دافع غافل بحماس عن اقتراحه   ما ردتها اتصير بدون شور العشيرة.. وأنه اعرف الزلم واحد واحد.. واعرفهم يتونسون على هالراي.

وكان حسين يعبث بحبات مسبحته على نحو موصول.. سمعوه اخيرا يردد: (يزليخا ليوسف تاليها!).

الفصل الثاني

أشرق وجه خلف بابتسامة، حين اقبل احميد ابو البينه ، يتبعه ولداه، وقال لحسين، مع غمزة بالحاجب:

- شلعتها من أبو البينه، عين تضحك وعين تبچي، ذبيحة بيها سبع احظوظ.. بلابوش دنيا!

سأل حسين نفسه: هل يعود خضوع ابو البينه. الى ذلك الحادث التأريخي؟، يوم وقف خلف على مترب النهر ليمد المقاتلين بالعزيمة فرءآه يحبو متخفيا بين الاشواك موليا الادبار للمعركة؟ وهمس لي يومها لقد رآني الوح بالبندقية وعرف انني لمحته فحاول ان يتماسك لكن حياته كانت عزيزة عليه. وخجلت.. خجلت ياحسين.. أكره ان أطّلع على عورة.. والهزيمة عورة

(فدوه اغدي لك يا ابو ناصر لاتفضحه.. لاتسويها) وجاءت الفضيحة من شخص أخر.. فقد رأته (سعده) وعيّرته: (ها يمصَخم شارد؟!!) وكان جوابه وقحا- وقاحة الجبناء: (اسكتي اسكتي. هذا ضرب رصاص ما هو شيل ازرور!!).

التفت حسين الى سعدون وعاتبه ثانية.

- عاداتنا اليصير عنده ولد ما يحمّس كهوة بربعته ثلث تيام.. انت ليش سويتها سبع تيام؟

اجاب سعدون وفي صوته غنة المغلوب على امره:

- موش بيدي ياحسين.. رادوها هيج!

ضحك حسين وقال:

- لو ما وادم جاعده چنت اگول عليك خوش بيت شعر.

تكلف سعدون ضحكة وقال:

- اعرفه..

وهمهم خلف:

- هم عرفته   بلابوش دنيا!

وتطوع غافل فرمى كلمته من وراء الوجاق:

- يمكن آنه هم عرفته وروح مهلهل.. چاهيه شنهي مضمومه!

بارك ابو البينة لسعدون:

- امبارك بها الخيال..

وتوالت التهاني من ابناء العشيرة، في ليلة العشاء:

- امبارك بها لحاصود   امبارك بها لچادود.. امبارك بها لحاشوش..

ويعيد حسين ترنيمة مع كل تهنئة:

ابني المضغته البارود مفطوم اعلى سركيها
غم راي التجيب اهدان وتكمطه اعلى رجليها

وبارك سويلم الصگر لسعدون:

- امبارك بها لغزّاي

فاغتنمها حسين فرصة وأعرب عما يدور في خلده:

- اللي باركوا لسعدون، وسموا الولد حاشوش، اكيد محتازين حواشيش، عدهم دبش جثير! واللي سموه حاصود، لازم زرعهم زين وتذكروا الحصاد.

لكن اليسميه غزاي شنهو مگصده؟

الغزو ينراد له زلم من صدگ.. والوادم هليام تتلبد حدر العاگول!

جنا مثل الگرعا اللي تتباهى بشعر اختها جنا انزامط بثورة اهل الفرات. لكن من فشلت وحكموا الانكريز، استحلينا هوسة ذاك المهوال: (اخذيني ابسدج يا خاله!) واظن يجي يوم يفرضون علينا الانكريز كل جريه لازم سلاحها كطوة مسحاه!!

تأفف سعدون متضايقا، ورمى حسينا بنظرة حادة.. يذكره بوصية مكررة، مفادها تجنب الخوض في احاديث من هذا النوع. وقال في سره: يا له من رجل متعب.. غريب الاطوار.. مفتون بالشعر وبثورة الفرات، حتى بعد فشلها

أطلّ فالح بن سعدون، يحمل هاون القهوة، يتبعه حمزة بن خلف، وقد وضع المحماس على كتفه، كما يفعل الفلاح بالمسحاة.. وما ان اقتربا من باب الربعة حتى انزل المحماس عن كتفه، امسكه بيد واحدة.. اداره بسرعة.. رفعه الى اعلى.. رماه في الهواء مستديرا تلقفه قبل ان يسقط على الارض.

صاح خلف، بلهجة انكار تخفي شيئا من الاعجاب، ببراعة ولده:

- ياجماعه هذا موش فرخ.. هذا جني.. بلابوش دنيا!

تطلع عبيد بن غافل في جانب الافق الغربي، وراح يتطاول ويحدد البصر، كما لو كانت الرؤيا صعبة، ولما يزل بين الشمس ومغربها حوالي ساعة. يئس من استثارة الحاضرين، واستفسارهم، فأعلن بلهجة ترهيب:

- شرطه!

حدق الحاضرون في وجوه بعضهم، بعيون زائغة، كل يستجير صامتا ساد الاضطراب، واختل ترتيب المجلس.. ثم انضم كثيرون الى عبيد في

وقفته. صحح الخبر بعضهم:

- واحد شرطي وواحد قولچي..

امر سعدون بدخول الجميع، واستعاد نظام الديوان. فشرع حسين يردد بجرس معين:

يامرحبا بذوله المجبلين وعلى ظهورهن چنهم شياطين

حرك سعدون كفيه.. مباعدا ما بين اصابعهما وقال معاتبا:

- ياحسين: مية نوبه كتلك.. اكفنا شر هالحچي.. يا معود هاي حكومه.. لاتجيب النا سهبه!

قال خلف همساً:

- گلبي مستراح من جيتهم..

وقال غافل مقاطعا، كأنه يصل ما انقطع من حديث البارحة:

- اجا الخير وروح مهلهل، چاهية شنهي مضمومه!

رمقه سعدون بنظرة تأنيب. فما حديث البارحة الا سر، وما ينبغي كشفه للجميع.

إرتسم الخوف على وجه (احميد ابو البينه). وراح يندب حظه في السر: ضاعت الفرصة. وتحلل خلف من عهده.. قال لي أملأ كفيك من أطايب اللحم أما الآن فسوف يستأثر به هذان اللصان الجديدان. اكره لو دعاني شرطي الى بيته فكيف وهو ينتزع قطعة اللحم من يدي؟! ومن يدري فقد يخفيان مصيبة.. ضريبة جديدة.. ربما خطر للحكومة ان تفرض (الكوده) على الحمير والكلاب.

ثم همس احميد لجاره:

- تف ياول نصيب.. هم حضروها الشرطه!!

فرد صاحبه:

- لا عاب حلگك.. صار العشا زغنبوت بجيتهم.

تطلع حسين في وجه الرجل الذي يصاحب الشرطي، وساءل نفسه متردداً: اظنني رأيته من قبل؟ وسرعان ما تذكر: لقد رأيته بالتأكيد.. كان مع الجندرمة قبيل حصار الكوت.. ايام الجهاد.. لماذا كان الجهاد؟ اعترف انني لا افهم شيئاً من اسرار الدين.. الجهاد لحماية حكم العثمانيين.. اللّه ينصر الدين والدولة.. اللّه يطول عمر السلطان. وترجل الجندرمة وادمى ظهر (ابو البينه) وهو يعربد (يريد لوبيا للهصان!) الجهاد مقدس، ماذا يصنع بنا الانكليز؟ لن يفعلوا عشر معشار ما صنعه الجندرمة، اخرس القضية ذات صلة بالدين... ولكن يامولاي. إخرس. اسمح لي بكلمة واحدة. لم لا تصدر فتوى بالجهاد ضد كل الظالمين؟ فتوى بالخلاص. وصرخ احميد ابو البينه (منين اجيب لوبيا نازل بالجزيره) ثم عربد الجندرمة (يريد ماي سافي للهصان) (يا بعد چبدي هذا ماينا اللي نشربه) كلب عرب! ولكن يا مولاي هل الدين صخله يحرس ضرعها السلطان العثماني؟ اخرس!. وهز صلال ذيله. لا باشا من عرب ولا ماشه من خشب. (صبري بگ ما النا حياة من بعدكم) اخذ الكاولية من ابن طرفه. دفع لها خمس ربيات وتنقلت بين الاحضان. ولافتوى للجهاد ضد كل الظالمين. فتوى بالخلاص.. طفح البشر على محيا سعدون، وهو يستعرض الحال مع نفسه: عشاء (يبيض الوجه) رب صدفة خير من ميعاد. وتبليغ بالحضور الى سراي الحكومة.. لابد انها الدعوة المنتظرة من الحاكم الانگليزي.

تذكر سوآل غافل (لو اطوك الف ربيه شتسوي بيهن؟): وكأنها حمل ثقيل ينبغي التخلص منه بأي ثمن.. يالك من سفيه.. التفت الى الشرطي والساعي وقال بلهجة حازمة:

- تعشوا وامشوا

فأعتذر الشرطي بضيق الوقت.

وكان احميد ابو البينه يحاور سعدونا في سره (صار حاتم طي بذبيحتي.. خلهم يولون).

أقسم سعدون بشرف الحكومة لن يدعهما يذهبان قبل تناول العشاء.

(احميد ابو البينه): عزت حياتك شنهي هالزحمه. يحلف بشرف الحكومة!! لوما خيافة الله چنت اگول على شرفك وشرف الحكومة.. خلهم يولون). عاند الساعي ورفض الدعوة بإصرار فرد عليه سعدون:

- المثل ايگول لو تلگاك الخير لا تزل عن دربه.

(احميد ابو البينه): ما گالوا المثل على هيچ حسبه يا حاتم طي- آخر زمان -. بين الخير وبين الشرطي عداوه مثل عداوة ابليس وي بسم الله الرحمن الرحيم!!!).

لم ينثن الساعي عن عزمه ، مسببا إصراره بضرورة تبليغ صلال، لأنه مطلوب للحضور في سراي الحكومة صبيحة بعد غد.

فخاطبه احميد ابو البينه في سره: (بس انته ابن اوادم وتعرف الاصول وگايم بواجبك، أصير ممنون لليعرف واجبه.. اشلع الشرطي اشلعه..) ثم رفع صوته حال مغادرتهما الربعة.

- أُفّيش.. هسه استراحيت.. روحه بلا رده!

*   *   *

استراح سعدون الى جانب (الصيرة) الشرقي، مضيقا عينيه لاقصى حد، يرامق شمس الصباح، مستمتعا بالدفء، وقد نشر التبغ على طرف عباءته لتجففه اشعة الشمس. كان اول القادمين اليه غافل. شرع يتحدث، قبل ان يجلس، عن سفرة الغد.. والحلم الذي اضحى حقيقة. وربما يكون العطاء اكثر من الف ربية. استعذب سعدون هذا اللون من الحديث. ولكنه استدرك، وأعلن تذمره من صحبة صلال:

– ما تنراد السفره وي هذا المگلسن، شايف روحه يفتهم، عود حافظ له اشجم جلمه: يعني.. والى حيث!

وراح غافل يمط الشتيمة لتصير مضاعفة. ادركهما خلف وهما يشتمان صلالا، فأضاف الى صنوف الشتائم مجموعة جديدة:

(ابو المعيديات. ابو الكاوليات.. ابو الدنبك) وتناهى طرف من شتائمهم لمسامع حسين، قبل ان يصل، فصاح من مكانه:

– غيبة الصبح الواحد بسبعين.! دوركم اياه هالمنعول والدين..

وكانت اول ضحكات يومهم، التي يسميها خلف (غموس الخبز) ويبالغ حسين فيقول:

(الضحچ زادنا).

ملأ سعدون (سبيله) بالتبغ تبعه حسين وراح يملأ (سبيله) من تبغ سعدون المجفف ، ثم غمز لخلف وغافل قائلا:

– خايبين هذا خوش تتن يابس!

واتبع ذلك بترديدة شائعة: عنده اعلوچ دوروله.. (عنده اعلوچ

طيحوله...). قال سعدون وهو يراهم ينهبون تبغه:

- شنهي هيه.. فرهود؟ بيت محترچ؟!

اجابه حسين:

- ضلعك سمين.. باچر اتحط الالف ربيه على كلبك واتگوم تطفر نهران!

تنهد سعدون وقال:

- اويلاخ ياحسين.. كون صدگك.. اشتكره منها؟ شعره من جلد خنزير!

أخرج كل منهم كيس زناده. امسك الحلقة المعدنية بيمناه والحصاة بيسراه، وعلى حافتها نتفة (الوذيح) وراحوا يقدحون. اشتعل وذيح حسين ثم سعدون وبعدهما غافل- وظل خلف يقدح بلا جدوى، فقال سعدون يسخر من زناد خلف.

- لايامال الگوم ولا يچاچي!

واضاف غافل:

- امكبسن وروح مهلهل ! چاهيه شنهي مضمومه؟

وشارك حسين بقوله:

- مثل زناد الجصاني.. ايدگ عليه من گبر الچلبه للكوت، تالي من ورث گال له هجم بيتك أبو طگه!

التفت خلف الى سعدون وقال معاتبا:

- عندك صلبوخ زايد.. ليش ما تطيني اياه؟

- اشتدفع بداله؟

وقاطعهما حسين منغما:

عمك خالك لاتنطي حط امتيعك بالينطي!

أطلّت، من وراء الصيرة، حسنه بنت سعدون، وطالبته بخلع الثوب واليشماغ لتغسلهما، استعدادا لسفرة الغد.

لوى خلف رقبته، وتطلع في وجهها المستدير المشرق، وعينيها السوداوين الواسعتين وقال بلهجة حنونة:

- اللهم صلي على محمد.. صرتي مره من صدگك، اتخوفين الجندرمه!

ثم كرر دعابة مألوفة لها منذ الطفولة:

- بعدچ تاخذيني.. يو بطلتي؟

توردت وجنتاها، كتمت ابتسامتها، ولم تجب. سألها ابوها ان كانوا يدخرون شيئا من (الشنان) لغسل الملابس فأجابت: نستعيض عنه بالنخالة.

استأذنهم سعدون لدخول الربعة.. وبعد قليل عاد يستر جسمه بالزبون ، مكفكفا اطرافه بحذر. نظر اليه حسين وانشد ساخرا:

خلي الحجل ينشاف كصري زبونچ

كولي جليل الخام من ينشدونچ

امسك خلف طرف الزبون وتفحصه مليا ، ثم اعلن:

- ياولد.. هذا زبونك طايح حظه.. موش مال هيچ طرشه.. ومواجهة انگريز..

قال حسين وهو يدقق النظر في الزبون:

- مثل ما گال خلف. اخذ زبوني..

اشار سعدون الى لحيته ورأسه وقال لحسين:

- ينراد لي زيان يا ابو ناصر..

ثم اردف مازحا:

ترضى امشي للانگريزي بهالحيه المكوشه؟!

- لا ما ايصير. الانگريزي ما يرادله لحيه امسرحه!

احنى رأسه بين يدي حسين، مخلدا للسكون. وكان حسين يدندن مع خشخشة الموسى (شلك بطول الراس سولك مجيدي .) فأذا ما استغاث سعدون متألما ، رفع حسين موسه وقال:

- هاه.. تسكت يو اخلي زيانك نص ونص.. اوديك خروعه للانگريزي؟!

- زيان الاسود.. موتتني..

- اليريد المدري شنهو.. يصبر على الأحّوه!

وانشد حسين وهو يسكب الماء على لحية سعدون:

لاتكضي ايام عمرك بلها- واعتلي خيل الصبايا بلها

دني الماي اللحيتك بلها- لو شفت جارك لحيته امزّينه

ضحك خلف وقال:

- صدگك. أبلل لحيتي.. حتى اتزيني بعد سعدون؟

أجابه حسين:

- خايب مالك بغير كلب! هذا رايح للانگريزي ويتزين حتى يصير حلو بعين الصاحب.. انته على يا مال متعب روحك؟!

ولما انجز تحديد لحية سعدون بالموسى، امسك المقص مرددا: (يحلوين الشوارب ما نسنكم..) ثم سأله:

- إتريد اسوي شواربك على طرز العصملي يو طرز الانگريزي؟!

- طرز العصملي اشلون والانگريزي اشلون؟

- العصملي مثل شوارب غافل مفتولات لفوك والانكريزي (ولو لهسه ما شايف واحد منهم) لكن اكيد امدندلات لتحت!

اقترح غافل ان يلبس سعدون ثيابه كاملة، ويتهيأ كأنه في حضرة الحاكم. واكمل الاقتراح خلف، بأن يجري التمارين على مقابلة الحاكم.. فيتصور حسيناً هو الحاكم. يدخل عليه.. ويسلم.. ولما نهض سعدون لتنفيذ الاقتراح، استوقفه حسين، واشار بأصبعه الى الحذاء الذي استحال لونه الى لون الطين وقال.

- سعدون. هذا كلاشك ما يلوگك... انت ما سامع كون واحد يمدح له سلعه ايگل لصاحبه اتلوگك لهالوجه.. فعاد هذا كلاشك ما يلوگك لوجه الحاكم الانگريزي!

فتر حماس سعدون.. وتساءل:

- ياهو منكم عنده اكلاش زين؟

حسين: اكلاشي يعضه الجلب ويعوص، هالتشوفه بعينك..

خلف: احترگت فرده من كلاشي.. وصار مده أمشي حافي.. بلابوش كلشان!

غافل: آنه بالجافله عريان ممن ولا خاف.. صارلي سنتين وروح مهلهل امشي حافي..

التفت حسين الى سعدون وغمزه قبل ان يعلن:

- خوش كلاش عند ابو البينه..

واتبع ذلك بنظرة وابتسامة لخلف.

قهقه سعدون وصاح:

- صادت.. وروح مهلهل صادت!

ادرك خلف ماذا يعني كل هذا، فقال بحزم:

- لا لا كلشي ولا هاي. هم اتريدون اتذبونها بركبتي.

ضحك حسين وقال ملغزا:

- لا وروح ابوك، مامنها چاره، حسبة الكلاش بركبتك!

رد خلف، بلهجة المشفق على (ابو البينه):

- طاحت عليه طركاعه، من گال عليكم السلام؟

امس اخذت منه طلي ذبيحه لابن سعدون الجديد، وخمس ربيات گرضه، مصرف لسعدون واليوم اتريدوني آخذ كلاشه!

مد سعدون يده الى جيب (الزبون). اخرج كيس الزناد- وناوله حصاة بيضاء، وقال:

- موش هاي الطلبتها؟ هسه شتگول.. تسوا الروحه لبو البينه يولاء؟

تناولها خلف. قلبها بين اصابعه. ابتسم ثم قال وهو يتهيأ للنهوض:

- اروح، وامري لله.

استوقفه حسين ليملي عليه وصية:

- گل له: انريد كلاشك للبركه! حتى اتصير سفرة سعدون راشده!

- لا اتخاف علي، تعلمت على هالشچولات هم عندي ابو البينه آخر..

ادركوا مغزى قوله، الذي ينصرف الى اخيه جودة، صاحب اكبر قطيع غنم في القرية، وابخل الجميع بأستثناء (ابو البينه).

رجع خلف يحمل كلاش ابو البينه، فأستقبله حسين مهوسا:

(غط جاب الدّره أضوت بيده!)

أعاد غافل اقتراحه: بأن يجري سعدون التمارين على مقابلة الحاكم. وان يتهيأ حسين لتقمص شخصية الحاكم. فأستجاب حسين اولا وشرع يخطب، كما لو ان شيوخ العشائر بين يديه:

– حكومة مال آنه كلش ممنون من شيوخ عشاير الكوت. كلش صديق كلش زين ماكو تلايب.. ماكو هرايب.. مو مثل اهل فرات مشاغبين.. خسوساً مخسوس شيخ سعدون بن مهلهل كلش ممنون من هضرتك.. ما يرضى واهد مثل هسين مشاغب يتكلم بديوان مال انته.. ولازم يدير بالك على خلف ابو همزه يسويه صديق مال احنا!

صاح خلف كأنه يدفع تهمة:

– لا عمي. لا العويذه واللويذه. لا اريد الانكريز ولا اريد صداكتهم.. لا اعرفهم ولا يعرفوني.. نعلة والديهم!

تنبه سعدون الى ان زوجته كانت تراقب حركاته وتصغي الى خطبة حسين وتبتسم فقال لاصدقائه:

– هاي الردتوها، حتى النسوان كامت تضحك علينا

واشار اليها وهي تحتضن المولود الجديد منزوية في ركن البيت. فخطر لغافل سوآل مباغت:

– سعدون، وروح مهلهل، ما نشدناك ، اشسميتوا الولد الجديد؟

ولم يترك لسعدون فرصة الاجابة، بل سارع يقترح:

– آنه اشوف، وروح مهلهل، سموه صالح، مادام اخوه الچبير اسمه فالح.

فرد عليه حسين ساخرا:

- خايب، اشماله حچيك اتخطري.. چاهو ترهيم شعر فالح وصالح ومالح وچابح!

واقترح خلف ان يحمل المولود اسم جده (مهلهل).

فأجاب سعدون.

- اسميه ورا جيتي من بغداد.. اشوف نتيجة هالسفره واطلع الاسم من النتيجة..

وبدأ حسين ينغم بيتاً معروفا:

يلما خذيتي اهواچ   شسمه ابنج إيصير؟!

الفصل الثالث

بدأ حسين يخالس ولده النظر، من خلال السنة اللهب المتراقصة.. ثم كف عن مداعبة مسبحته. فخمن ناصر ان اباه يقرأ افكاره، وقال لنفسه هاهي نظراته تنفذ الى اعماقي المتفجرة شوقا الى لقائها فتحاشى نظراته، متخفيا وراء خلف حتى يخبو اللهب..

حوم خاطر مزعج استبد بحسين كلية، حمله على الانصراف لمحاورة نفسه: عاشق في عنفوان شبابه- وخطيبته بنت سعدون تتفجر حيوية.. يسيل لها لعاب الزاهد في محرابه- حتى خلف لم يكتم اعجابه وافلتت منه العبارة

(اللهم صلي على محمد.. صرتي اتخوفين الجندرمة)

وحكمة تقول ما اختلى رجل بأمرأة الا وكان الشيطان ثالثهما واذا ما سبق السيف العذل ما قيمة الندم؟ كان علي ان آخذ مهمة حراسة بيت سعدون واكلفه بحراسة بيتنا لست ادري لماذا اصغيت لوصية سعدون (ابن اخوي.. ابن اخوي.. النشمي ناصر ما اوصيك أكثر صير رجال زين لاتنام وتنغلب أريد انطارتك وكفه) ولم أعرض مبيتي بدلا منه ولكن.. ولكن ياكهلا نسي شبابه ألا تتذكر ساعة حللت السرج عن ظهر الفرس؟ ناولتها السرج، ثم سكرنا بعناق.. ولا يسترنا سوى السرج. العشاق لايعدمون وسيلة اللقاء.. فلويتً هنا حارسا وبات ناصر في بيتنا ما الذي يحول بينه وبين التسلل اليها ؟ وعلى مبعدة اذرع من لحيتي يتمددان في فراش واحد.. هل احرسها ام أحرس الفرس؟ انسيت يا ولدا يا كهلا نسي شبابه يا من يخادع نفسه يوم كانت أمه بين سبعة اخوة واخوات وتمددت معها تحت الغطاء؟ وليس بينك وبينهم سوى جسمها ؟ ان سحر العالم كله في

خدمة العشاق ولكل عاشق وعاشقة (كلاو خناس) وليس عبثا قولهم...

فاجأه غافل بسوآل، بعد ان سئم الصمت:

- ابو ناصر شنهي هالسكته؟ هاي موش من عاداتك

فأجاب حسين، دون سابق تدبير:

- المايسوكه مرضعه سوكك العصا ما ينفعه.

رد غافل، لمجرد كسر حدة الصمت.

- لا واللّه. العصا من الجنه. العصا تنفع المانيفعه مرضعه.

بدأ فالح بن سعدون على غير عادته، قليل الحركة، لايغادر الربعة. ليشعرهم ان مكان ابيه يشغله رجل. حاول مرارا اقحام نفسه بين الكهول، لكن ملاحظاته كانت تتلاشى على التو.

توجه خلف برجائه الى حسين ان يعوضهم الليلة عن وحشة غياب سعدون بأنشاد أحب الشعر الى نفسه.

اوجس ناصر بن حسين خيفة وسائل نفسه بقلق: لئن جاء مزاج ابي الليله وبدأ بشعر ثورة العشرين فيالحظي السيء.. ربما لاينتهي قبل انبلاج الفجر (تصخمنا وتعزينا!) وتضيع ليلة تعادل العمر كله.. ادركت ان ما قدمته في الخفاء هدية ولكنها لم تعرف ما كنهها لابد انها عرفتها الآن... واقطع انها تتشوف في ظلمة الليل. كم تحب المرآة.. فلطالما صرفت جل الوقت المخصص لتعليمها الحياكة في بيتنا تتشوف بالمرآة.. وعلمتها الحب قبل ان تتعلم حياكة السجاد- ما اروع وجهها في المرآة حين خالستها النظر من قاطع الربعة.. أجزم انها الآن تتشوف ما احلى التشوف في الظلمة- هل امسكت مرآة في ظلمة الليل؟ كيف عرفت حلاوة التشوف في

الظلمة؟ دعك من هذا الهراء..

انطلقت اسارير ناصر وهمس لنفسه مطمئنا هانت الشدة!! لم يقع اختياره على شعر ثورة العشرين بل اختار شعر صديقه ابو الغمسي

آنه دوم اعلى المحاسن شاربي
شارب اسموم الحيايا شاربي
ما يطوبس للهضايم شاربي
وخابت امك يلتعيش بمسكنه

أكتفى خلف بالقول:

- يابعد شاربي شاربه..

وحرك غافل رأسه اعجابا

وأسرّ ناصر لنفسه معابثا:

(اي واللّه خابت امك يلّي اتضيع الليله).

ثم واصل حسين انشاده:

ياحمد خيل الصبايا بالرهن
ما يعرفن هورهن من برهن
ام العلا بالسيف ما هي بالرهن
غصب علباشا يودي كركنا

استثار البيت حمية خلف، واعتبر دعوة سعدون من لدن الحاكم الانكليزي منطبقة تماما على قول ابي الغمسي فقال بحماس:

- غصب على شيبه وشيب ابوه ودا على ابن مهلهل.

(ناصر: احسن تواده. بيها سبع احظوظ. والاحسن منها لو تروحون

تنامون.. الدنيا بارده واخاف عليكم من البرد! ولو خليتوني وحدي غصب علباشا انوم فالح.. اطمره بفراشه. واشوفه شغلي وياها الليله.. ليله..)

لم يتوقف حسين عند ملاحظة خلف. انشد للشاعر بيتا آخر:

بركعوهن بالمطارج والبطن
بديرة العدوان خاطن والبطن
لا تكولش خيل ابو فدعم بطن
لحكن المديون واستافن منه

(ناصر: الليله استافي القضى والمضى. الف حبه ما بين الخدود والنهود اكثر من هالوفا اتريدون؟!)

توقف حسين، ريثما يملأ سبيله بالتبغ. عاود الانشاد بجرس معطر، ورق صوت المسبحة على كفه:

لابسه الشاكر وجالبته كلب
يابعد جوز الچلاوي والكلب
الماتشوفه العين يسلاه الكلب
ولو سلاه الكلب جيف اسلاه انا؟

(ناصر: يابويه هذا الحچي الزين..

هسه تمام- يا بعد جوز الچلاوي والگلب- ولو ما شايف الشاكر.. لكن اكيد شي حلو لو تلبسين.. گطعة فلي هم تطلعين حلوه..)

وخفض حسين صوته، ثم تابع ينشد لابي الغمسي:

لابسه العسجد وخصر الخل خل
وفوكك مجرى الماي شدت خل خل

جيت اكض الزلف كالت خله خل

اشلون اخلي الزلف وحياتي منه

(ناصر: اكض الزلف لو بيدها كچك جابلي والويها لوي واسوي الحچي چويمتين- ابكيفها؟ خله خل!! حسبالها لعب طم أخريزه..)

قدم حسين للبيت التالي: بأنه منسوب الى زوجة ابي الغمسي، لكنه يشك في صحة الرواية ويميل الى انه من نظم ابي الغمسي نفسه، او ربما وضعه شاعر مجهول، بعد ان صنع حكايته، لقصد ما، وسبب الشك في نسبة البيت كما يراه حسين يعود الى ان المرأة في الريف لاتجرؤ على مصارحة زوجها، بأن غيره تغزل بها، وهي في عصمته. والرواية تقول ان ابا الغمسي اعجب بزوجة احد رعاة الجاموس- وهو كما يعرف عنه ولوع بالحسان- فطوى بيته وجاور ذلك الراعي، وفيما كان ابو الغمسي منهمكا بملاحقة تلك المراة، كانت زوجته تتعرض لنفس الشيء من الراعي.. فصاغت التحذير لزوجها في هذا البيت:

ريت ربك يا اغميس بيدرك

ليش مشيك كل زمانك بيدرك

يلتحوف الناس حافوا بيدرك

لا يعطرونه ويفلسونك منه

هتف خلف:

- ايابه.. ايابه.. ذهب.. بلابوش دنيا.. هذا ذهب موش حچي!

وضم غافل رأيه الى رأي حسين، بعدم امكانية المرأة على مصارحة زوجها بهذا الشكل، ولايفصلهم عن الحادث المزعوم اكثر من جيل، ولما تزل

العادات والقيم كما هي- لكن خلفا تجاهل اقوال غافل وكرر أعجابه:

- اصير خادم وممنون لليحچي الصدگك، ما حبيت شي بالدنيا من كثر ما حبيت الصدگك، بلابوش صدگك! وتسارعت حركة المسبحة فوق كف حسين بأيقاع بديع. قرأ لنفس الشاعر:

لاتلوم اشهاب لا ونش وجن
ويحسب الساعات لو راحن وجن
بين نهدچ والخواصر والوجن
ضيعت كارة اكرنفل مثمنه

(ناصر:يا يابه! بين نهدچ والخواصر.. اعوينة ابو يومي- وصلت لطين الحري.. وصلت لطين السبلان- خايب يناصر كارة اگرنفل. هو الگرنفل كواير؟ خله ايصير بيادر ياهي مالتك؟ بين نهدچ والخواصر اعوينة ابو يومي..)

وقرأ حسين للشاعر نفسه:
يا خشيف الوارده بشاطي الحلال
وشاده الرأس چفيه حلال
آه واويلاه من شافچ حلال
مصة ارياكچ لعيش ابها سنه

(ناصر: يابه.. يامصة ارياكچ.. نشفتوا ارياكي والله حچي جواهر- ما احسن منه غير روحتكم يابويه.. حتى اشوف شنهي هاي مصة الارياگك- گبل ما شايفها اگصى حد واصل ليه حبة الوجنات والركبه).

ياخشيف الوارده من شيب أبوه

وچاسره المشعل بشيبه وشيب ابوه

واليحبچن حيل زين شيب ابوه

والتحبنا الحية ابوها امزينه

(ناصر: الحية ابوها امزينة بموس بايچ.. يو بمنجل اعمى.. الليله انزين شيب ابوها لا ابو الانگريزي الراح ايواجهه لا لا الانگريزي احسن دكه سواها بعمره..)

استخفه شيء من الطرب. فراح يهتز منتشيا وقرأ للشاعر

جهجريتي تكرص الممش كرص

وما تهاب الشالخ زناده وكرص

افرث الباكه وغمس بالكرص

اكل واشبع والمدابچ لي انا

(احوه.. احوه.. اعوينة ابو يومي.. اعوينة ابو ساعتي افرث الباكه واغمس وأكل مية گرص. والطم لطم بالباكه!)

حالما فرغ حسين من انشاد البيت استشعر لذعة ندم وخاطب نفسه: لقد أفرطت.. لقد كنت أهذي.. انظر ايها المتصابي ماذا حل بخلف كيف استخفه الطرب.. وهذا غافل كذلك فما ظنك بشاب مثل ناصر لا يفصله عن خطيبته سوى نسيج مهلهل يدعى ستارا ولولا جعجعة الرحى بين يديها لسمعت هذا الشعر الذي القيته دون روية ولا تفكير. ربي حسن العاقبة.

سكت حسين، كأنه يكفر عما بدر بالسكوت. لم يستجب لتوسلات خلف بألقاء المزيد من الشعر. تطلع من باب الربعة، ثم أشعرهم برغبته في الانصراف:

- فات وكت اهواي.. الاحسن نمشي.

اتفق خلف وغافل قبل مغادرتهما الربعة على الذهاب، قبل طلوع الشمس، لتفقد زرع البترا والاطمئنان على زرع الديم.

قطع غافل حواره مع خلف والتفت الى حسين يسأله دون مناسبة:

- ليش بطلت من زرع الديم..؟

همهم حسين بكلمات غير مفهومة ثم رفع صوته قائلا:

- من جنت ازرع ديم، شبهت روحي باليضيف بيت ويظل جاعد بكوسره ما يدري اشوكت يطلع له احد من اهل البيت ويطيه رغيف زقنبوت. وچانت عيني بأيام زرعي للديم مشبوحه للسما اودع الغيمه الماشيه واتلگي المجبلة. تالي گلت: هالرغيف الاسود المشدود بجناح بومه ما اريده!

التفت خلف الى غافل وسأله:

- افتهمت شي من حجي حسين؟

- حرام.. وروح مهلهل.. كلشي ما افتهمت!

أوشك ناصر على فقدان صبره، والخروج عن اتزانه، لعناد فالح بن سعدون، واصراره على مشاركته الحراسة. وقال في سره:

(ما خلصنا من ابو الغمسي الا بالشافعات. انوب فالح صار لي ابو زيد الهلالي!) اقنعه اخيرا بأن اقتسام الليل بين الحارسين هو الاسلوب الافضل، وعليه ان يأوى الى فراشه لمدة معينة يوقظه بعدها لتسلم الحراسة الصباحية، موحيا اليه بأن (المصبحچي) له الدور الاعظم وعليه المعول في صيانة البيت.

كفت عن تحريك الرحى، فشمل الهدوء ارجاء البيت. خرج ناصر

ليحرض الكلاب على النباح، صفر لها و (وشت)، دار حول البيت دورة كاملة. كان الجو منعشا رغم برودته. دخل الربعة ليحمي اطراف اصابعه في رماد الوجاق. خرج ثانية ، متنكباً بندقيته. سمعت وقع خطواته. كانت امها تغط في نوم عميق. قدر ان وقتا كافيا مضى على تمدد فالح تحت الغطاء. دخل الربعة ثانية وراح يعبث برماد الوجاق كأنه يبحث عن الجمر المطمور. فاجأه فالح من تحت الـ (يزار) يسأل:

– هاه.. بردت؟

– لا ما بردان. نام (لا ياما النعويم گلب حافرك الليله ذار بعيونك ملح!)

سمعتهما يتحاوران، فأنكرت على خطيبها تصرفه، وعاتبته في سرها غشيم! لا تكفيك احاديث النهار ولم يشبعك كلام خلف ولا الشعر الذي قاله ابوك.. تريد مواصلة الحديث مع فالح لتضيع بقية الليل في ثرثرة لاتغني ولاتسمن. الوقت ليس طوع أمرنا ألا تفهم ياغشيم دعه ينام. لا تضيع ساعات لن تعوض ابدا

آه من الوقت تقول أمك بعد، قسمة الحاصل مباشرة وأزف عروسا (گللش) حينذاك نمتلك الوقت. واصنع لك بيتا لايدانيه بيتكم- على نظافته وترتيبه- أحوك السجاد والوسائد بيدي واملأ وسادتك بالريش.. وكل خيط في فراشنا وغطائنا يفوح منه البخور دائما

تناهي اليها شخير فالح. سمعت وقع اقدام ناصر حول البيت فخاطبته مؤنبة:

أخذ أمر الحراسة مأخذ الجد وكأن اللصوص يترصدون غفلته لينقضوا

على الكنز! غشيم. لقد أدرك أخيرا، ها هو يقترب لابد أنه دخل الربعة.

ارتجفت قليلا ثم سألت نفسها: ولكن يابنت يا مستورة. كيف؟ هل تصورتي اللقاء؟ هذا اللقاء في مثل هذا الوقت؟ كلما قاله وهو يدس (المشوفة) في يدي (الليله الليله) هل ينسف الستار القاطع ويتمدد بجانبي؟ (اشّاه!)

التصقت بأختها الصغرى النائمة. احست دنوه من الستار.. سحبت رأسها عن الوسادة. لامست قدماها ستار القاطع. طرح بندقيته جانبا سحب فراشه جوار القاطع. دقق النظر: الستار يتحرك. مد يده مؤملا تشابك الكفين اولا صرخ الطفل الرضيع بصوت يشبه زمارة قصب صنعها غشيم.

فأجفل ناصر وسمع حفيف ثوبها وهي تبتعد عن الستار رددت الام، وهي تتثاوب، بضع كلمات غير مفهومة، والقمت الطفل ثديه فكف عن البكاء.

غادر الربعة– صفر مرتين، ليشعر الام انه قائم بواجب الحراسة– ساد السكون ثانية. فتساءل وهو يرهف السمع: هل عاودت نومها العميق؟ لو كان الامر كذلك لشعرت حسنة ونبهتني بأشارة. ربما ذعرت وحاذرت اكثر مما ينبغي وعليّ أن آخذ المبادرة.. من هنا أرفع الستار وأزحف وأعرف أين هي الآن.

دس رأسه تحت الستار معتمدا مرفقيه على الارض صرخ الطفل ثانية.

(ناصر: يامشلوع. اشمالك مكروص عگرب!)

نادت الام:

- حسنه حسنه اكعدي يمه وجي لي نار-

(ناصر نار تشعل ابيج يا منعولة الأهل)

سمع ديكا يصيح في طرف القرية، فركبه الغم. خرج من الربعة فتنسم ريح الصباح البارد. تناوبت الديكة صياحها مؤذنة بأنبلاج الفجر. فتضاعف غمه وبدأ يلوم نفسه بعنف: دعك من هذه الثرثرة السخيفة والتبريرات الباردة، ولا تلومن الا نفسك، وعليك ان تعترف بأنك لاتصلح لتدبير شيء وينطبق عليك المأثور.

(ما يحل رجل دجاجة).

استيقظت القرية على ثغاء الغنم وخوار البقر المختلط بنهيق الحمير، فيما اخلدت الكلاب الى السكينة.

سمع خلفاً يصوت:

- غافل.. ياغافل. تريگت يو بعدك؟

(ناصر. بطران! امغبش ايشوف ديمته..)

ثم رأى خلفاً يتبعه غافل، ووراءهما خيط من دخان التبغ المتصاعد من (السبيلين) وسمع غافلا يقول لصاحبه:

- اشدعوه امغبشين. ابو ثور ما أكل ثوره.

(ناصر. تحچي على ابو ثور الما اكل ثوره- ينراد له ذبح وصلخ وطبخ- ما تحچي على ابو (مريس) اللي ما اكل مريسه.. وبينه وبين المريس بس الستار.. وهو چاتله الجوع ومنتعل سلفا سلفاه!).

أجابه خلف مازحا:

- بخيل وما أكل ثوره!

(ناصر: گول جبان وما أكل مريسه..)
ورمقته حسنه بنظرة ملتهبة وهي تقدم له خبز (الريوك).

*　　*　　*

جلس خلف على الرابية، التي تفصل هورة البترا عن الديمات، فتراءى له غافل أطول مما هو بكثير. إعتزم أن يمازحه بهذه العبارة:

(غافل وروح ابوك گبل اشويه من چنت تفتر بديمتك زمگك السراب وصرت أطول من الطنطل) ثم ساءل نفسه وهو يمد البصر ناحية البترا: ولكن كل الاشياء تبدو في مثل هذا الوقت اكبر من حجمها الطبيعي ومن هنا جاء قولهم (الجزيره واويها سبع!) وحتى الاصوات تبدو اليوم اعلى مما هي وتسمع بوضوح أكثر. أرهف السمع بتدقيق فتناهى اليه، من طرف البترا الغربي، مزمار الراعي شجيا ملأ سبيله أخرج الزناد. أشتعل (الوذيح) بضربة واحدة. لا يشتعل الوذيح بهذه السرعة ايام الشتاء. ولهذا جلب انتباهه (الصلبوخ) الذي اهداه له سعدون تخيله يقول: (هاه! شفت الصلبوخ الاطيتك اياه.. ولا يچاچي من صدگك).

نفخ الدخان متلذذا- فتحرك ببطء- ليس ثمة هواء يبدده. تابع حزمة الدخان بنظره وهي في طريقها الى ديمته. حاور نفسه ما أوسعها، ولكن ما أقل المحروث منها كأنه- على حد تعبير حسين (شامه بوجه مزيونة) ما كنت اتوقع سخاء السماء بمثل هذا المطر- او كما يقول حسين..غريبة افكاره بعض الشيء، لكنه حكيم ما في ذلك شك.

خلع عباءته تمدد فوقها وسرح بصره حتى ذاب في خضرة زرع الديمة. ساءل نفسه: ألا تبدو اكثر انخفاضا من هورة البترا؟ لو قدر لجدول البترا

ان يخترق هذه الرابية لامكن إرواؤها سيحا لكن المسألة تتطلب عملا. والصعوبة تكمن في الحصول على المال. رمق السماء بصعوبة، ودعا بخشوع: وانت القادر على كل شيء.. هل يصعب عليك تحقيق امنيتي؟ حوادث لاتعد ولا تحصى. ضرب الحطاب فأسه فأرتد وظهرت حافة (الكوز) المليء بالذهب فأذا هو مربوط بسلسلة.. وما هو أقرب من ذلك ورواه لي بنفسه. تبعت الغنم صبيحة يوم ممطر ورأيت شيئا يلمع اخذت منه القليل ورجعت فوجدت الكنز قد اختفى.. ياله من أثول. أثول غنم. لم يملأ عباءته. املأ عباءتي. واذا كانت الكنوز تقترن دائما بوجود الثعبان الضخم للحراسة- ياربي إكفني شره اكمل عطاءك. وسوف اخفي كومة الذهب. أطوي بيتي على عجل وأرحل. أبني البيت فوق الكنز ويتساءلون (اشعنده خلف؟ گول ابو حمزه اشسامع؟ اكو واحد معتدي عليك.. إمسمعك حچايه موزينه؟ بساع.. بساع اتشيل. لاخبر لاعلم؟ وأجيبهم: (زهگت من الجريه وخيسة الدمن اريد أشم الهوا) ويرد حسين ساخرا: (اشدعوه اشدعوه يا خلف هاي من اشوكت صرت نازوكي شايل بنص الشتا حتى اتشم هوا بلابوش دنيا على گولتك!).

وينتصب بيتي (ابو سبع طرايج) وعلى بابه ثلاث من اصائل الخيل: (نجيمه ووذنه وعبيا). ولاتنقطع القوافل بين بيتي وبين المدينة (أذبح وأصلخ) ولحم وطبيخ وتمر ودبس (واي واي حلو بحلو) وإن هي إلا أسابيع حتى يلتف حولي الناس ويتكاثرون تكاثر الذباب على الدبس. واعلن رغبتي في تمديد جدول البترا من يرفض بعد هذا اللحم والطبيخ؟ وتتكاثر البيوت.. أولها بيت حسين. بعد أن أهمس له: سأجعلك ياحسين في

حيرة من أمر الليرات، لا تعرف كيف تنفقها ولكن ألا يعني هذا تجاوزا على حقوق ابن مهلهل، بأعتباره شيخ العشيرة؟ أبدا أما شيخة ابن مهلهل فلا انازعه عليها ابدا ابدا كل ما في الامر استمتع بغناي وإلا لماذا يعتز الناس بثرواتهم؟ وسوف أجزل العطاء لسعدون ولتكتمل حياتي الجديدة بأمرأة شابة. ولكن ماذا عن ام حمزه؟ وهل في ذلك بأس؟ أثمة غني في الدنيا يكتفي بأمرأة واحدة؟

وبعد هذا الثراء والجاه من يرفض لي طلبا اذا تقدمت لخطبة ابنته- الذهب مفاتيح سحرية. بلابوش ذهب! حتى سعدون بن مهلهل لو اقدمت على خطبة ابنته حسنة لا لا هذا لايصح. كنت ولازلت اعاملها وكأنها ابنتي اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الأجدى ان اخطب صالحه بنت احميد ابو البينه. فأجاه صوت غافل.

- ما بيها حظ! چاهيه شنهي مضمومة

للحظة خيل اليه ان غافلا يذم (صالحه)، ثم صحا من حلم اليقظة، فأدرك ان صاحبه يذم الديمة

* * *

بكر خلف بمفرده في اليوم الثاني. اتخذ من الرابية المشرفة على ديمته مجلسا وتابع حلم الامس. زفة عظيمة للعروس يفرد لها بيتا بداخله (حوفه) كالتي يصفها حسين في بيوت آل السعدون. ويرقص حتى حسين وسعدون نفسه ويرددون (بعرس خلف ما نرگص؟!) وافرض على جوده ان لا يسرح بشيداهه. اودعهن مع احد رعاة اغنامي.

نهض من مجلسه. قام بتخطيط موضعي لاماكن البيوت وتذكر فجأة:

البنادق.. لقد نسيت البنادق. اشترى.. كم بندقية اشتري؟ خمسين بندقية.. تعلم الرماية ياحمزة (ولك ما سامع تفكك من برا وفشك من برا واللي ما يرمي..) واسأل حسين: هل بقيت لك امنية تريد تحقيقها؟ اما انت ياغافل فينطبق عليك المأثور (نذرك بسيسه) ومطامحك في حدود (ستر العوره وترس الفوره)

وخصص اليوم الثالث لتحديد مجرى (كرمة خلف) كان النهارمشمسا خلع (زبونه) وراح يجمع الطابوق وكسر الفخار التي كشفتها السيول. شيد علامة على قمة التل. ثم وضع علامات صغيرة الى الشرق منها، حتى الطرف الغربي من ديمته. وقال لنفسه وهو يرتقي قمة التل! هنا عند هذا المكان ينبغي ان يكون عرض (الكرمه) ثلاثة اضعاف عرضها في الاراضي المنبسطة والصعوبة هنا عند هذا المرتفع. ثم سأل نفسه بسخرية: عن اي صعوبة تتحدث يارجل؟ لاصعوبة مع اللحم والطبيخ لا صعوبة مع الذهب- بلابوش ذهب! عاد الى العلامة الكبيرة، أضاف اليها بضعة احجار، فبدت شكلا هندسيا يلفت النظر.

وصار خلف يسترسل في احلامه، وهو بين اصدقائه، في ربعة سعدون، يؤثر الصمت على الكلام، فخيل للكثيرين انه قلق بسبب غياب سعدون الذي طال اكثر مما قدر له، حتى غدا حديث القرية كلها لم ينج من ذلك القلق الا حسنة بنت سعدون وناصر بن حسين، اللذان فتح لهما غيابه الطويل، ابوابا الى الحب لم يحلما بها من قبل. وعبر (احميد ابو البينه) عن قلقه لطول غياب سعدون، وهو يهمس لزوجته ذات ليلة:

تدرين.. اكلاشي تگطع. وچاد تگطع. اهل بغداد كل مشيهم على

صخر. والصخر ياكل كاعية الكلاش بساع بساع!

*　　　*

الفصل الرابع

كان يوما دافئا. يذكر بآذار، تراءت شمسه اكبر مما هي، واقرب الى الارض من اي يوم آخر، والجو يعبق برائحة العشب الذي نبت في كل مكان حول القرية وبين البيوت. أرخيت حبال الربعة وانتصب عمود الكوسر، فدخل ضوء الشمس جميع زوايا ربعة سعدون. لم يعد للشكوى موضع في احاديث الفلاحين والرعاة، فالزرع لايعوزه الماء، ونموه السريع يلفت النظر ويبعث المسرة في القلوب. والعشب في متناول كل ضرس.

غادر خلف الربعة للمرة الثالثة: لاشيء يثير القلق سوى غياب سعدون بن مهلهل، الذي طال اكثر مما ينبغي، والحكومة مثل آذار لايركن الى صحوه ولا دوام لأمطاره. ومن يدري، فربما دبرت مكيدة لابن مهلهل- وجرائم الانكليز في الفرات لما تزل ندية في اذهان الناس حتى هنا عند أهل دجلة.

تطاول خلف على اطراف قدميه، واضعا كفه فوق حاجبيه، ليتقي اشعة الشمس. ضيق عينيه لاقصى حد ورفع صوته بالسوآل:

- يا جماعة مدري عيوني اتسورب، مدري اشوف خياله؟

هرع الحاضرون، عدا حسين، وانضموا اليه يتطلعون. بدأوا يخمنون.. انهم ثلاثة.. قال احدهم ان الفرس الثالث بدون خيال.. قطع عبيد بن غافل الشك باليقين، حين أعلن:

- سعدون راجب حصان ووياه واحد، والحصان الثالث محمل أغراض.

أحس الخيبه ناصر بن حسين: كان عليه ان يتأخر الليله (ياسته سوية الستين) ما اروع الطريقة التي ابتكرناها اخيرا وتمددنا على الفراش سوية، كل منا يتوسد ذراع حبيبه.

أستقبل سعدون بفرحة، تحولت بعد قليل الى دهشه: حاجيات لاتعد ولا تحصى... موزعة على ظهور (الكدش) تركزت الأنظار شيئا فشيئا على ملابس سعدون اللماعة. عجب (احميد ابو البينه) حين رأى سعدونا ينتعل شيئا أسود، يلمع تحت ضوء الشمس، فحاور نفسه متشائما: لقد صدق حدسي.. وأكل صخر بغداد كلاشي.. وسوف يضيف وعدا الى سابق وعوده بالتعويض عن الكلاش (قيّد يا اسعيد.. وان جان ما عندك سند اقبض حسابك من دبش).

تعانق سعدون مع الكبار.. وقبل الاطفال المحومين حوله، ثم تناول كيسا من الورق وراح يوزع على الاطفال (اصابع اللبّس). فناداه خلف من وسط الربعة: (حصتي من اللبّس.. لا تنسى حصتي من اللبّس) لكن دعابته ضاعت وسط ضجيج الاطفال وصياح (المچاري) الذي كان يتعجل انزال الحاجيات والعودة الى المدينة.

كرر سعدون الوصية على الشباب ان ينزلوا الحاجيات برفق، ويحملونها بعناية، فبينها ما هو قابل للكسر.. وكان زبونه (البّته) محط أنظار الجميع، وهو يتموج تحت اشعة الشمس مثل طوق الحمام.. شرع سعدون بخلع حذائه قبل الجلوس، فلم يكن ذلك سهلا، صار يراوح بين رجليه.. مرة كاد أن يسقط وهو يقف على رجل واحدة، ويرفع الاخرى لحل ازرار الحذاء.. فصاح خلف مستغربا

– شنهي الطركاعه!! امخيّط على رجلك؟

ثم تساءل وهو يشير بأصبعه الى الحذاء:

– هو هذا شنهو؟

اجابه غافل لما تأخر جواب سعدون:

- مثل مالات الجندرمه.. لكن على غير جنس..

قال سعدون بعد نزعه الحذاء:

- هذا بوتين.

- توتين؟

- بوتين؟

- ب و ت ي ن.. بلابوش بوتين..

كان (احميد ابو البينه) أعلاهم صوتا وهم يرددون الاسم، اجابه سعدون وكأنه قرأ افكاره:

- ابشرك يا احميد.. كلاشك على حطة ايدك.. بس وصلت بغداد اشتريت هذا البوتين. اللّه يبلى صلال..

ابتسم ابو البينه.. وداري فرحته بالقول:

- فدوه الك الكلاش.. چاقابل ينعز عليك؟

غرقت عيون خلف في لجة زبون سعدون والوانه الزاهية، التي بدت في الظل اجمل وازهى مما هي تحت الشمس. ففكر متفائلا:

- من المؤكد ان الزبون الذي طلبته مثل هذا.. فلا يعقل ان يشتري لنفسه من صنف ويشتري لي من صنف آخر.. (إخذ فالها من اطفالها) من المؤكد ان المبلغ كبير.. حتى صار يشتري هذا القماش الفاخر وهذا الحذاء العجيب.. وحمولة الخيل التي لا يعلمها الا اللّه.. أتراه عثر على كنز مثل كنزي الذي أحلم به؟ شغل حسين لبعض الوقت بمراجعة العبارة التي قالها سعدون (اللّه يبلى صلال) وكانت لهجته توحي بالأعجاب ولا تنم

عن الانكار وساءل نفسه:

ترى هل آخى بينهم الانكليزي وراحت دماء العشيرة هدرا هل نسي مقتل صكر؟

اخرج سعدون حزمة اصابع ورقية، كان يخفيها بين ثوبه وزبونه، وراح يفرق محتوياتها على الحاضرين.. ثم وضع اصبعا بين شفتيه.. فحاكاه خلف.. وقضم الاصبع بأسنانه ليتبين طعمه فنهره سعدون ضاحكا:

- لا خلف. لا لاتاكلها- هاي غليون!

تفحص الجالسون ما بأيديهم. أخرج سعدون من جيبه قطعة معدنية لماعة، يتدلى منها خيط اصفر ضرب القطعة المعدنية بكفه، فتطاير منها شرر صاح معظمهم:

- يا ستار!

وتصاعد الدخان من رأس الخيط، فوضع طرف الاصبع الابيض، الذي اسماه غليونا، فوق رأس الخيط سحب نفسا، مثلما يفعل بالسبيل. ثم رفع رأسه ونفخ الدخان بوجه خلف معابثا

استعصى عليهم اشعال (الاصبع) من نتفة الوذيح.. ولكن حسين اهتدى اخيرا فرمى نتفة الوذيح على الارض وانحنى فوقها يشعل (المدعو غليونا).

اكتشف اكثرهم خطأه في طريقة اشعاله، اذ وضع (الزبانة) على النار.. وتلقفوا الاسم من سعدون:

- جگاره..

- جوگاره..

- گجاره.. بلابوش دنيا!

كرر سعدون اسمها (جگاره) فحرك حسين رأسه. تذكر بيتا من الشعر قيل عن السيد گاطع:

(يسد بأروافها ويشرب جگاره!)

جاهر به حسين فردده الحاضرون، مما سهل عليهم استظهار الاسم.

اجاب سعدون على تساؤلاتهم عن الزناد الجديد:

– هيچ ينجدح وتورث الفتيله.. ويطفي بس تجر الفتيله..هيچ.. وبنص الزناد حجره من كبر حباية الحنطه.. هاي بدال الصلبوخ اللي (چنا) نورث بيه..

طوى الفتيلة، ودس الزناد في جيب زبونه، ثم غادر الربعة حافيا، تاركا على الوجوه اكثر من علامة استفهام. رجع يحمل صرة تحوي مسابح حسينية. قال وهو يفرقها على الحاضرين:

– سويتها على گولة ابو المثل هيه تجاره وهيه زياره.. رحت لكربلا.. زرت واندعيت الكم.

قبل كل منهم مسبحته ووضعها على جبينه تبركا بـ (طين) ارض الحسين.

حركها حسين فوق كفه وانشد: تنشدني العربان هالبويمه امنين.

جابوها الى الزوار صوغه من الحسين.

وأمر سعدون ولده ان يستدعي بنات القرية على عجل لهبش التمن.. ثم التفت الى احميد ابو البينة وناوله عشر ربيات (على الحساب) ليحضر ذبيحة جيدة لعشاء الليلة.

استبد بهم الفضول لمعرفة نتائج السفرة المثيرة– كانوا يتوقعون السؤال

من حسين.. في كل لحظة يتوقف فيها سعدون عن استفساراته حول الزرع.

حين غربت الشمس، غادر الربعة سعدون، مكث في بيت العائلة بضع دقائق، ثم عاد يحمل نارا مشتعلة، داخل وعاء لماع تحيطه زجاجة مستديرة، حولها انبوبان، وفوقها غطاء مثقوب من جوانبه. وقد امسك وعاء النار من حبالة معدنية.

- ؟

- ؟

- فانوس

- فنوص؟

- فانوس

- فانوص- بلابوش دنيا!

- عفيه حكومه

- هجم بيت الانكريزي.

- ايباه!! اشلون شغل..

- لا يا مناعيل يا هالحكومة..

وعاجله خلف بالسوآل:

- سعدون. چنها سفرتك زينه؟!

- ابشرك زينه.. زينه كلّش!

ثم أجال سعدون النظر في الديوان حتى استقر على غافل، فزم شفتيه.. ورفع حاجبه وقال:

- لكن صارت موش على رايك..

وحول نظره صوب حسين.. ثم رمق خلفا وكان يريد بذلك تذكيرهم بالاقتراح الذي طرح عشية سفره بأن تكون اكرامية الحاكم الانگليزي مكرسة لتجديد البيت، بدلا من توزيعها على ابناء العشيرة. وادرك اخيرا ان اصحابه قد نسوا تفاصيل ما دار تلك الليلة- او هكذا خيل اليه- فكشف طرفا من اسرار السفرة موضحا ان الحاكم اقترح عليّ شراء مضخة واشترط صرف الاكرامية لهذا الغرض...

توجه الحاضرون بأذهانهم الى صورة المضخة التي قال عنها سعدون.

- تمص الماي من الشط وتبزه بالنهر..

تطوع غافل ليخفف من حدة الاندهاش الذي سيطر على الحاضرين وقال:

- شفناها- ذيج السنه من رحنا لكربلا.. حصان امعصبين عيونه ويفتر على بير بيه دولاب والدولاب بيه مواعين.... فقاطعه سعدون بأستخفاف: - خايب انته اتغني بالكوز! هذا التگول عليه ناعور.. ثم مضى شارحا:

- المضخة تعمل بنفسها ولنفسها دون حصان ولا بغل.. كلها حديد.. لها موقد في بطنها يصب فيه النفط، من خزان فيحترق النفط.. وتدور دواليب المكينة من تلقاء نفسها فتمتص الماء من الشط وتقذفه في الساقية.. وتظل تعمل طيلة ايام السنة بلا توقف.

ضحك خلف وقال بجرس تهكمي:

- وصدگت بها لحچي؟ واجيت اتسولفه!

رده سعدون بنفس قصير:

بعد اللي شفته بعيني.. ما اچذب شي.. شفت عجبه.. ازود من المكينه

ثم روى قصة ركوبه الزورق البخاري من الكوت الى بغداد:

ايدرولها انكريزي، لا بس كبوس.. ايسمونها فليكه..

- ؟!

فليكه.

فليكه. بلابوش دنيا!

فلك يفلكهم انشاء اللّه

- ياللّه دخيلك من الفليكه

تحركت الفليكه چك چك چك بغير شراع ولا ملاح.. وملاجيه الماي ملاكاه وچان اتشكك الشط نصين. حسبالك شبوط بساجيه زغيره.. وهذا ابو كبوس لازم له حديده جنها مطوى ووين ما يريد يوجهها ولو رادها توكف ايدك جرس رن رن ن. يسمعه الدريول الآخر الجاعد تحت.. يعرف يلن الغبطان يريد الفليكه توكف.. ايطگ الها الصروع!. قاطعه خلف متسائلا:

- ابو كبوس اسمه غبطان؟

- لا شغلته غبطان

- غبطان؟ عيش وشوف بلابوش دنيا!

وانشد حسين: (طياره طارت فوگك بيها انگريزي..) ثم التفت الى خلف وقال:

- اليسمع بالطياره ما يتعجب بالفليكه. بعد لا تچذب شيء. كلشي

ايصير ما دام ابن آدم تعلم على شغل الحديد وكام يملچه مثل الطين.. كلشي ايسوي..

قطع حديثهم حضور العشاء الدسم.. وبعد تناوله.. مسح غالبية الحاضرين اكفهم بثيابهم وعبيهم.. دون ان يتكلفوا غسلها بالماء، وعادوا الى اماكنهم بشهية متفتحة لسماع احاديث سعدون ورواياته العجيبة الغريبة

حاصروه باسئلة لا نهاية لها فضل ان لا يجيب الليلة على كل الاسئلة.. فبعضها يحتاج بدايات لبقة وحسن تخلص، مثل السوآل عن مقدار الاكرامية التي منحها له الحاكم الانكليزي.. وما يترتب على نصب المضخة من تغييرات للواقع الراهن في القرية. وهو الليلة في عجلة للقاء زوجته بعد طول غياب بيد ان اسئلتهم كانت من الكثافة بحيث لا يمكن اختراقها بسهولة، الا بعد فتح ثغرة. قدر ان لا مناص من اشباع بعض فضولهم، فأوجز قصة سفره على النحو التالي:

وصلنا بغداد وبعد ثلاثة ايام استدعينا للسراي.. ادخلونا على شخص سمين (يتفصل خمس ازلام مثل خلف!) وجدنا هناك بعض شيوخ (الغربية) يلبسون (الغتر) وبعض شيوخ الاكراد (مچرغدين) وكل واحد منهم يلف على بطنه قماشاً ملونا يكفي لثوبين او ثلاثة. وبعد انتظار قال الرجل السمين: تعالوا غدا ولم يتيسر لنا لقاؤه في الغد وما بعده.. وفي اليوم الرابع وفقنا لمقابلة الـ (مشير.. المستشير..) نسيت اسمه لكنه، على كل حال، لا يسمى الحاكم.

ثم التفت سعدون ضاحكا ناحية حسين واكمل حديثه: كنت أغالب

الضحك، رغم حراجة الموقف ورهبة اللقاء.. حين بدأ المشير يتكلم والسمين يترجم.. تذكرت خطبتك، يوم تقمصت شخصية الانكليزي.. فقد اعاد الكثير مما قلته.

واستدرك بلهجة حنونة، يذكر صلالا بالخير: من الانصاف ان اعترف بذكائه وسرعة بديهته.. انه داهية يصلح لمواجهة الحكام.. وانه يهتدي الى كل مكان في بغداد.. الچايخانه.. اللوقنطة.. والمسافر خانه..

واضاف خلف بلهجة ساخرة:

- والتياترو..!

وبادر حسين على الفور بلهجة حاقدة:

- والمنزول..!

فأستاء سعدون من تلك الملاحظات، وأنبرى يدفع بحماس كل التهم عن صلال: اعترف انني كنت على خطأ في تكوين الصورة عن الرجل.. لقد استوثقت من صحة المأثور (الرجال مخابر ما هي مناظر) وان من يسبر غور صلال يوقن ان هذا الانسان شهم وغيور.

فحدق خلف بوجه حسين مندهشا من هذا التحول المفاجئ في علاقات سعدون مع صلال. ولما يئس من مبادرة حسين قال بنبرة حادة:

- صلال مثل ذيل الچلب.. اعوج ما يستعدل طول عمره!

انتفض سعدون انتصارا لصديقه وكرر المثل (الرجال مخابر ما هي مناظر) واكتفى حسين بترديد هوسة:

بس لا يصفر لك وترومه!

فتوتر الجو، وتأكد الحاضرون بأن هذا الجدل قد حول الحديث عن

الوجهة التي ارادوها له، وهي ان يبلغ نقطة الكشف عن مقدار اكرامية المشير.. وما معنى نصب المضخة..؟

وراح بعضهم يطلق لخياله العنان، فيتصور مقدار المبلغ:

اذا كانت بعض اطرافه هذا الفانوس وزبون البته والزناد والبوتين وحمولة ثلاثة كدش....

تظاهر سعدون بالتعب والنعاس، فأنفض الحاضرون من حوله، عدا حسين وخلف وغافل. تركهم بضع دقائق، ورجع يحمل هداياهم:

لكل واحد (عرقچين) ملونه. امسك حسين هديته وراح يداعبها فوق كفه منغما:

– فدوه عيني ام عرقچين..

تكلف سعدون ضحكة وقال:

– لو ما حسبة المكينه چا اشتريت الكم صوغات زينه.

اجاب غافل:

– جيتك اكبر صوغه!

تجاهل حسين قوله، وانشغل خلف بتقليب الزناد الجديد، فألتفت سعدون ناحيته وقال بأريحية:

– خلف اخذه.

استكبر خلف شأن الزناد وفكر:

انه ثمين ولا شك.... وابن مهلهل اولى به.. فهو شيخ العشيرة ووجهها الظاهر امام الحكومة وشيوخ العشائر الاخرى.

ثم رفع صوته:

- لا لا ما آخذ زنادك.

تناوله سعدون ورماه في حجر خلف وقال بحزم:

- وروح مهلهل لازم تاخذه. آنه جبت اثنين حتى اطيك واحد منهن.

امسكه خلف بفرحة ظاهرة. وحاور نفسه: غدا اجلس في الديوان متميزا عن الآخرين بشيء لم تعرفه المنطقة كلها انك ذهب تيزاب يا سعدون لن تصدأ ولن تسوء. وغمغم بعبارات شكر غير مفهومة، اذ وجد نفسه عاجزا عن التعبير

ضحك حسين وقال.

- بس انت مرصعت!

وقال غافل.

- توداة الانگريزي طلعت من بختك.

شاع في البيت عرف بخور يرطب الانفاس. فأمتلأت الربعة بأريجه.. وفغم انوف الحاضرين بتحد قال سعدون بصوت واهن:

- اليوم تعبت كلش، من رچب الكديش.. سارع غافل يؤيد:

- صدك رچبة الكديش موش راحه.. وقال خلف ضاحكا:

- الكديش يتعب. بلابوش كدش!

واكتفى حسين بالقول وهو يلف كوفيته حول رقبته ويهم بالنهوض

- **صار معلوم. لا اتذب الخرج بالعجد!!**

* * *

استنتج اهل القرية ان ضيفا كبيرا قد حل في بيت ابن مهلهل، مستدلين بأيقاع الهاون على نحو معلوم لا يجيده غير سعدون، عودهم ان يدق

القهوة بنفسه ويوقع انغاما على الهاون في حالتين: فجر يوم العيد ، ووجود ضيف عزيز له مكانته الخاصة. ولما تقاطروا على الربعة استكبروا ان يحظى صلال بمثل هذه العناية من رئيسهم ابن مهلهل: فحتى الامس القريب كانا يتشاتمان جهارا، وبين عشيرتيهما ود مفقود، وثارات لم تمح اثارها (الفصول).

ولما أغرق سعدون في الضحك لنكتة رواها صلال، أعاد حسين هوسة كان يغمغم بها في مستهل الجلسة:

- سم لا يتلبس بأبدانك!

وهمس خلف بأذن حسين:

- صاحبنا من اهل الله، وهذاك شيطان يضحك عليه!

شرع صلال يعدد فوائد التعجيل بنصب المضخة، واهمها الاستفادة من زراعة المخضرات.

فقال خلف بصوت خفيض:

- صار الحچي اتخروت! ايريدنا نزرع فجل وشلغم.

اجابه حسين همسا

- حتى لو متت اتگول عليك الشاعرة: (يزراع الفجل والشلغم ابراگه – عليك الطم واسوى الگاع رگراگه).

استدرك صلال موضحا: ثمة فلاحون يمتهنون زراعة المخضرات سوف يرحبون بدعوتكم، لان الارض الواقعة بين هورة البترا ونهر الغراف بكر لم يعبث بها المحراث منذ زمن نجهله، والى هذا فالمضخة وحدها ضمان اكيد لنجاح المخضرات.

* * *

أسر (احميد ابو البينه) بأذن جاره، بعد الغداء الدسم:

- اشقبضنا من عداوتهم، غير الطلايب وشلعة الكلب.

الواه على صداكتهم، كركدنا وراها اشچم عظم!

وعاود صلال حديثه، بعد الغداء مباشرة،

فأقترح على سعدون العجلة في الرحيل الى الدار الجديدة. كان سعدون ينوي البقاء في هذه الدار حتى الخريف. بيد ان فكرة الرحيل العاجل راقت له بغتة وقال لصديقه:

- شورك والهدا إنشيل انشيل!

امسك صلال سلسلة الساعة الفضية. سحبها من جيبه ايذانا بأختتام الزيارة. فتح غطاء الساعة. حدق في عقاربها بخيلاء. سمعوا قبلا عن ساعة صلال، ولكن ليس الخبر كالعيان. سأله سعدون:

- صلال. عرفت الها ابساع ابساع ؟

اجاب بمباهاة:

- اهم.. چا يعني نمونه!

- لو اعرف الها چا اشتريت وحدة..

دنا منه صلال وراح يشير بأصبعه:

- هذا الزغير ابو الساعات وهذا ابو الدغايغ هذا لو صار اهناه وهذا اهناه معنا بالثمانية، يعني الساعة ثمانيه.

واصل شرحه دون ملل. استبدت الرغبة بسعدون لتعلم قراءتها،

اصغى للمرة الثالثة، ثم اعلن:

- صلال. يمكن عرفتها. اقترح عليه صديقه ان يحتفظ بالساعة عنده لبضعة ايام، راقت لسعدون الفكرة وتناول الساعة شاكرا، ثم استمع لآخر درس عن كيفية ملئها وتقديمها او تأخيرها بالمفتاح.

• • •

لحظة غادرهم صلال، انبرى سعدون يمتدحه ، دون مناسبة، وعيناه لا تفارقان عقارب الساعة. فكرر حسين هوسته:

- بس لا يصفر لك وتروحه!

ضحك خلف، حتى جلب انتباه سعدون، فداري الموقف بزعمه، ذكرتني الساعه بحكاية شيخ ادخيل الذي يؤذن للفطور في قرية ال طرفه، ذات يوم غائم أذنّ الشيخ ادخيل، وتناول الصائمون فطورهم، وبعد ربع ساعة، او تزيد بانت الشمس من وراء السحب وبينها وبين المغيب بضع دقائق فهرع الشيخ ادخيل مذعورا الى المكان الذي يرتقيه عادة للآذان ورفع صوته عاليا، حتى يبلغ اطراف القرية، بقصد ابراء ذمته، وردد بلهوجة:

- ولكم اجنب. اجنب، لحد يفطر على اوذاني. واللي افطر خطيته بركبته!

واستدرك خلف مؤكدا: ان ما حدث لشيخ ادخيل قد يتكرر في كل مكان دون وجود الساعة. ولهذا فهي نافعة في شهر رمضان خصوصا

أسر حسين لخلف، في اليوم التالي: اذا كانت المضخة من الانكليزي هدية خاصة بسعدون، فلقاء اي شيء يروي أرضنا؟ واختتم السؤال بالقول:

- كلبي لا سبني من هالملعوبيات!

اجابه خلف: ان المضخة تنصب للارض البور التي لم نزرعها منذ عشرات السنين، وهذا امر لا يعنينا ولا يؤثر في واقعنا الراهن ضمن حدود هورة البترا فحرك حسين رأسه وقال.

- انته مثل السمج.. بغير گلب. ولك هاي شغلة ذاك من گالها بس اطريفه!

*　　*　　*

اختلطت تساؤلات ابناء العشيرة عن نصب المضخة، وما يترتب عليه مع انكارهم للصداقة المفاجئة بين رئيسهم ابن مهلهل وبين صلال الخبيث. وكان اعلان سعدون، في ديوان العصر عن ان صلالا هو الذي اختار (فيصل) اسما للوليد الجديد، بداية لشجار حاد، سببه شتم الحاضرين لصلال وعلى نحو لم يألفوه، اشتعل سعدون غضبا واعتبر كل تعريض بصلال إهانة موجهة له شخصيا

*　　*　　*

وقف خلف على الرابية جنب العلامة التي صنعها لتشير الى مجرى النهر المقترح: أمدد الجدول. اشق فرعا يروى بزايز اراضى الخبيث صلال للسيطرة عليها، واذا ما تفوه بكلمة أمرغ وجهه بالتراب. البنادق في كل يد. يعرف وقفاتنا المشهودة. اشارة واحدة ينقض عليه ابناء العشيرة وان تدخل سعدون (اسكت سعدون هذا موش شغلك) احذره من صداقة هذا الخبيث. آمره بحزم. ابتعد عن هذا الحقير. قولوا لصلال اذا جاء ثانية الى بيت مهلهل الويل له. امنعه حتى من المشي فوق تراب ارض العشيرة ما اروعها ويالها من حكمة:

ابو انخيله اعلى المتن منثوره احنا الما نهاب البندكي من ثوره

انوچل العايل لحم من ثوره والطلابه ايدامها التوثيه

رفع صوته، هز ساعده: الطلابه ايدامها التوثيه.. بلابوش.. بلابوش توثية. الم يخطر لك يوماً ياحسين مثل هذا الحلم! لا اظن، لابد ان الشعر يستولى عليه كلية. وفي منامه يحلم بالشعر. ولو لم يكن الامر كذلك كيف يتسنى له استظهار هذا الشعر؟ أعجبته العلامة، بعد ان وضع عليها حجارة كبيرة، غدت شكلا هندسيا بديعا نضحت ابتسامة من شفتيه، حين تخيل حسين يراقبه ويقرأ ما يدور في خلده، تذكر فجأة سبب مجيئه، اوشك الوقت المناسب على الضياع. جئت لارى زرع الديمة انه لا يحتمل يوم الاربعاء القادم. عاد الى بيته مسرعا اشار على زوجته بمصاحبته موضحا: اليوم هو الاربعاء ألم تسمعي (يمحمد ربعه وسمينا) غالبية الفلاحين باشروا الحصاد اليوم. اكتفى بعضهم بجز شتلات معدودات ليكون في حل من امر الحصاد في اي يوم شاء. ومن تأخر اليوم تحتم عليه الانتظار الى يوم الاربعاء القادم. حمل كل منهما منجله، تبعهما حمزة بلا دعوة. كانت تبسمل وتصلي طيلة الدرب الذي يخترق هورة البترا:

- اللهم صلي على محمد وآلي محمد. عين الحاسود بيها عود.. طول عمري ما شفت هيج زرع نبت بالبترا

وكان حمزة يقاطعها معابثا: اللهم صلع.. اللهم صلع.. لاحت لحمزه تلك العلامة التي صنعها ابوه فوق الرابية. تراءت وسط لجة السراب كأنها قبة. اشار ناحيتها وسأل:

- بويه.. بويه هذاك شنهو؟

- هذاك سراب

- لا موش على السراب أنشدك. على هذاك چنة كَبة ايمام؟

- هذاك؟! هذاك.. ايه مكَام سيد سراب!! فضني.

وعاد خلف يشتبك مع زوجته في شجار نشب بسبب اصرارها على ان تأخذ اليوم (عباه) من زرع الديمة مقررة:

- ما يصلح على اهل البيت ياكلون طعام حايل لو بدوا بحصاد الجديد.. مدراه مدراه.. انت ما تعرف المدراه؟

- هذا بيا كتاب قريتيه ثواب للمرحوم والشافته عيني؟!

- عيب لايسمعك الفرخ!

* * *

كان الحصاد محور ضجيج الفلاحين، وهم يشربون قهوة العصر

- اليوم حصدت..

- زرعي بعده. اليوم سميت حصدت لي چديس..

- زرعاتي يتحملن يومين ثلاثة يا هو اليريدني عوان، كرضه يوم بيوم.

- انه اكرض يومين بيوم!

فاجأهم سعدون بالحديث عن المضخة، بلا مقدمات، عدد فوائدها، اهميتها، ضرورة الاسراع بنصبها وانعطف بالحديث بغتة يطلب مساعدة ابناء العشيرة: تساءل بعضهم عن الكيفية التي تمكنهم من المساهمة في تكاليفها، وقد استثار نخوتهم؟ فاوجز المسألة بعبارة واحدة: ان تحفظوا الزرع من العبث. تمتنعون هذا الموسم عن اخراج الدوسات (والمعين). بدا

طلبه غريبا، بعض الشيء، ومع ذلك، تطوع احدهم ثم تبعه آخرون:
- غالي وطلب ارخيص.

*　　*　　*

شوهد فالح بن سعدون، في اليوم التالي، يتجول في البترا، لمنع الارامل والايتام من جمع السنبل المتساقط وما اخطأه المنجل. وتجرأ في اليوم التالي، فاستوقف ارملة، ونفض عباءتها ليتبعثر السنبل القليل الذي جمعته بجهد مضن.

عقب حسين لدى سماعه الخبر:

- معلوم! معلوم! هاي دروس الخبيث صلال (اليوم اهون باچر ضوگه)

*　　*　　*

كانت خطوة سعدون التالية، احراج اهل الديمات، في ديوان العصر، ليجعلوا له حصة، وما كانت له من قبل علاقة بزرع الديم، قال وكلامه موجه لخلف.

- السنه اريد اهل الديمات ايساعدوني بالخمس..

سارع غافل يجيب بحمية:

- الديمات واهل الديمات جدامك، الواه عدنا زايد وانحطه ابيت مهلهل، ثم تبعه خلف واولاد صگر. وسكت احميد ابو البينه مستشعرا للوقوع بالمصيدة، فليس من السهل انفراده بالرفض وسط هذا الديوان المزدحم.

*　　*　　*

فوجئ خلف بقعود زوجته عن الحصاد، كانت حساباته طبقا لاقوالها، ان الولادة بعد الحصاد، لكنها وضعت طفلها دون سابق انذار. اضطر

لاعطاء حصة في زرع الديمة. واستأجر ارملة لتكديس ما يحصده في هورة البترا وقال لحسين مداعبا:

- تذكر يوم نشدنا سعدون اشسميت ابنك؟ كال ارجع من بغداد واشوف نتيجة السفره واسميه، هسه عاد ولا حسبتي، لازم اسمي ابني على نتيجة زرعي: أسميه فرهود. ضاع نص زرعي.. تفرهدت حسين يا خوي فرهود، بلابوش دنيا!

تلقفها حسين وصار يرددها (السنه سنة الفرهود) تعريضا بسعدون الذي فرض حصة على زرع الديم وحرم على اهل البترا (المعين) واستخراج الدوسات. وكان يتبع القول (السنه سنة الفرهود) بهوسة لا يمل ترديدها: فن غير المنا ايگص بينا!

الفصل الخامس

.سته سبعه ثمانيه. اشار الى عبيد بن غافل:

- دگك ثايه اهناه..

خطا بموازاة نهر الغراف، مائة خطوة. اشار ثانية الى عبيد:

- ودگك ثايه اهناه..

قاس المسافة بين العلامة الثانية وبين جرف الغراف:

- اربعه خمسه سته سبعه ثمانيه.. مضبوطه، كل ضلع ميه.

لم يبق الا الحبل والاوتاد. المرحلة النهائية لتأشير الاسس، اخرج ساعته. تملى في عقاربها قال للبناء:

- ننتذر صلال هسه يجي.

وصل صلال. تطلع من على ظهر فرسه في جميع الاتجاهات. ترجل لتحية سعدون، وتحدثا طويلا، ومعهما البناء. ويكرر صلال على البناء:

- انريده مثل حجرة المكينه.. يعني اعجبنا شغلك بحجرة المكينه انريد بنيان الحوش منتاز.

اقترح صلال نقل العلامات الى الجنوب مائة متر تقريبا، تراءت حجرة المضخة لسعدون بعيدة، اصر صلال على رأيه، كان ميالا لابعاد الحوش عن المضخه اكثر فأكثر.

باشر الشباب والصبيان وبعض الكهول، من افراد عشيرة سعدون، عملهم بحماس، لم يخالفوا توجيهات (الاسطة) وملاحظاته عن تخمير الطين ومزجه جيدا بالتبن، بدأت جدران الحوش والحجرات ترتفع بسرعة. ويوم عاود صلال زيارته لموقع العمل، حدد النظر، على نحو ما يفعل المعمار، في كل ضلع من اضلاع الحوش والحجرات. تفحص الطين المعد لعمل الغد، و

(الزهاميل) الجاهزة بين يدي البناء فالتفت الى سعدون يمتدح العمل جملة وتفصيلا: ٠

- بنيان منتاز. يعني كل الشغل منتاز

سمع عبارة المديح عبيد بن غافل، رواها لزملائه بنبرة تمثيلية، محركا ارنبه انفه، كما يفعل صلال فأثار موجة من الضحك، والصخب تردد صداه في شاطئ الغراف: منتاز.. منتاز! واستلطف عبيد تسميتهم له (عبيد المنتاز).

*   *   *

حلق بيت الشعر فوق اعمدته الطويلة، ونشر جناحي نسر، بدا وكأنه يشغل المكان الخالي بين الحوش والمضخة على سعته. كانت الربعة من قبل تشغل نصفه، فيما تشغل العائلة نصفه الآخر، اما وقد صار مضيفا كله، فأنه يبدو كبيرا جدا ومهيبا لدرجة تبعث الاعتزاز في نفوس ابناء العشيرة، ومدعاة لفخر ومباهاة سعدون.

اصطفت بيوت الفلاحين واكواخهم بمحاذاة نهر الغراف جنوبي الحوش. فوصف احميد ابو البينه قرية سعدون الجديدة بقوله:

- چنها خزلة اصخول واطليات وجدامها خروف ابيض جبير.

وكان يشير بذلك الى حوش الطين الكبير.

اتسعت القرية الى الضعف، حين نزلها (الخضارة) ولم ينتبه احد من قبل الى فراغ الا حين امتلأ، فقد نزل القرية سيد محمد ابو شرارة،

ووجود السيد في قرية كهذه يكاد يكون لازما، فأن لم تطلبه بحث عنها وحل فيها مكرما، وبنزوله صار للقرية ديوان قهوة آخر يرتادونه عصرا، وقد تحولت قهوة مضيف سعدون الى (صبحية).

تتابع الحرفيون لسكنى القرية، وكأن صوت المضخة دعوة مفتوحة للرائح والغادي، نزل حائك وتبعه بقال وبعد ايام جاء ملا محسن واتفق مع سعدون وعدد من اهل القرية على فتح (كتّاب) لتعليم اولادهم القراءة. فكان اكبر تلميذ في الكتّاب فالح بن سعدون واصغرهم سنا نعمة بن حسين.

قال خلف يبرر رفضه لتعليم حمزة

- كون الغرايه اتوچل خبز، ما أشبعت الملا الچبير؟ چنه صراط حيايا وچاتله الجوع، بلابوش ملالي!

* * *

أمر سعدون ابنته ان تنقطع عن زيارة بيت حسين وتكف عن تعلم الحياكة على يد (ام ناصر):

- بت الشيوخ ما عدها وكت زايد على مضيف اهلها حتى تشتغل حواكه. كل حسبه ما وراها نفع، التعب بيها حرام. وللحطب هم لا اتروحين كلفت الفلاليح يخلون نسوانهم تنگل حطب للحوش.

لم يبق من عمل لحسنه غير نقل الماء وغسل الاواني في نهر الغراف، وكان ذلك بمثابة النافذة الوحيدة التي تطل منها على العالم، ومن خلالها تلمح ناصرا يترصدها على البعد، مكتفيا بأشارة لا تبل ظمأ ولا تشبع من

جوع ويحاور نفسه: عملت كالحمار بلا كلل متعجلا ان يشمخ الحوش عاليا دونما تفكير بالنتائج وها قد عرفت انني كنت متحمسا لتشييد سجن يحول بيني وبينها، أطلّي يا ذكريات بيت الشعر، من اي جهة اردت وصلت (ما تخاف يوعى ابوي.. توعي امي.. يوعى فالح؟ الليلة هم انسف الستار واتمدد وياج على الفراش) آه يا بيت الشعر يا جنة بلا خفير. تف على الطين الحقير وحوش الطين وعلى من اشار ببناء الطين (ابني ناصر دير بالك على الخمره ملجو الطين زين. تأمر عمي) حمار بلا تفكير. والآن اكتشفت ان التفكير ضروري. وامي لا تعرف شيئا (يايمه شو الحسبه سكته. سكته يا ام حسن سكته. مدري اشوراها) عليها ان تكلمه اليوم. تستحثه لمفاتحة سعدون. ماهي اسباب تأجيل الزواج. كان مقدرا له قسمة الحاصلات. هرع الى امه: لا تدخري جهدا اقنعي والدي فليكلم سعدونا بالامر.

افزعه حديث ابيه الذي اختلسه من وراء الستار واستعاده مع نفسه: لم يعد ذاك (السعدون) صار شخصا آخر. يتجنب محادثتي بتبسط.. يسخر من كلام خلف.. يود لو يطمر الماضي تحت التراب ليقطع صلته بالحاضر الجديد وكأنه انبثق من فراغ.

وتذكر سوآل امه لابيه؟

– اخاف انشغل بالمكينة والبنيان ونسى حسبة الخطبة؟

– كلبي ايكلي هالزله تبدل فرد نوب، وعيوني هم اتكلي.

ومع ذلك استجاب حسين لرجاء زوجته ونظرات التعطف في عينيها، فوعدها بمفاتحة سعدون حالما تحين الفرصة، ثم استدرك يبدد آمالها

ويطفئ شمعة الحلم على طريق (ناصر)، لكنني على شبه يقين بأن سعدونا سيرجع في كلامه، ومما يسهل عليه النكوص كون الخطوبة سرا بيننا لا يعلمها احد غير اهل البيتين.

*   *   *

مر اسبوع على اشتغال المضخة، وما زالوا مدهوشين بأدواتها وحركاتها، لا يملون الاصغاء الى صوتها، مستمتعين بمنظر الماء المتدفق الى الحوض:

- حسبالك كنبار مبروم. بلابوش مكاين!

- اليعيش ايشوف.

- قدره الهيه.

- حيل ابن آدم.

- استخفر اللّه. اشحده ابن ادم بغير ارادة ربك.

- لا اتصير مثل غافل، كل حجايه ونفض زيجه!

- حسين شتگول، إشكثر يا خذون حصه من الزرع بدال ماي المكينه؟

- تالي الليل تسمع حس العياط!

فاجأهما ملا محسن. جلس على حافة الحوض، خلع حذاءه وأدلى قدميه في الماء، كما يفعلان.

وقال لخلف مداعبا:

- تدري. آنه افتهم حچي المكينه مثل ما افتهم الكتابه على الخط؟!

– اسمع شتگول؟ (جيب افلوس ياديوس.. جيب افلوس يا ديوس) لكن بالسنه المجبله اتبدل حچيها اتصير دگتها اسرع. وتگول (اخذ افلوس. اخذ افلوس اخذ افلوس).

لم يتركها حسين تمر، دون الاستفادة منها، اغتنم فرصة مطالبة سعدون لحميد ابو البينه بأن يقترضه مبلغا من المال، لشراء النفط والدهن، فهمس بأذن خلف:

– تبين المكينه اتصايح ابو البينه: جيب افلوس يا ديوس!

*　　*　　*

نضج الزرع واقترب موعد حصاده، فأعلن سعدون، في ديوان الصبح، تعيين عبيد المنتاز (شحنه) لمراقبة الفلاحين.

تبادل الحاضرون نظرات انكار لهذا الاعلان الوقح، وفكر حسين: تعرت الشكوك وكشف عدم الثقة عن وجهه البشع. كان كل واحد من ابناء العشيرة رقيب نفسه، حريصا على صيانة خمس بن مهلهل، حرصه على خالص حلاله. ثم غادر المضيف مرددا:

– من صار شحنه المنتاز ماظل بالجريه محتاز!

وفي اليوم التالي تناهى خبر اجج غيض خلف، وجعله يصيح بلا تحفظ:

– اطوه الكراع وتناوش الذراع؟ بلابوش طمع دنيا!

ثم قصد احميد ابو البينه، على الفور، يعلمه ان سعدونا عين شحنه على الديمات: ويحرضه بأن جملة امور تترتب على هذا الاجراء، اهمها تثبيت حقوق لسعدون لا اصل لها.

فأدهشه جواب احميد ابو البينه:

- تمام يا ابو حمزه، الخبر صحيح. شنسوي؟ العام اطيناه خمس الوارد، والسنه هم ايريد الخمس، وما ايصير انبطل جدام الوادم، عيب. ثانيه وبعد، صار حيله من حيل الحكومه، شوفة عينك، البليصية راچبة ومحولة بمضيفه. بعد ما نگدر نتلاوى وياه!

تذكر خلف قطعة الارض التي سقيت بماء المضخة وخصصت (سفحه) لشياه ابو البينه فحاور ابو البينه في سره: صار خوش آدمي ويعرف المستحى؟ هلبت استحيت من شردت بالعركه؟ لكن هذا حجي سفحه ياديوس. اعرفك اشلون ديوس.

نفض عباته وقام مغضبا، ثم ردد بصوت عال وهو يغادر بيت ابو البينه:

- بلابوش سفحه!

وحين قصد غافلا لنفس الغرض وكلمه بالامر

رد عليه ببرود مثير للاعصاب:

- حالي من حالكم يا خلف تطون اطي، ما تطون اسكت!

ولم يعضده في مسعاه سوى اولاد صگر، الذين صحبوه الى بيت حسين، يأخذون مشورته ويهتدون برأيه وكانت اجابة حسين:

قضيتكم في غاية الوضوح ولستم بحاجة الى من يلقنكم عبارات مطولة رنانة، كل ما في الامر قولوا: لا نعطي خبز اطفالنا الجياع لمن يريد مبادلته بغموس لاطفاله.

فبكر خلف واولاد صگر الى مضيف سعدون، وقد نمت في اذهانهم

الكلمة الشجاعة –لا نعطي خبز اطفالنا –انتظروا حتى تدور القهوة على الديوان، راح خلف يلف سيجارة وكان حديث العهد بلف السيجاير، يخطئ احيانا في ثنى الورقة، فيعيد عملية اللف. ويفكر ببداية تصلح مطلعا لحديث جاد مع سعدون. يستبدل عبارة باخرى. يزن الكلمة فيجدها غير مناسبة. يعاود البحث عن المكان المناسب لتلك العبارة التي تجمل كل شيء (خبز اطفالنا..).

كان سعدون على بينة من مسعى خلف، فقد اخذ غافل على نفسه مهمة تبليغه بثورة خلف عصر امس، وبالغ بعض الشيء فيما رواه. وضع خلف سيجارته بعناية في مشربه الخشبي. قدح زناده مرتين.. عاجله سعدون قبل القدحة الثالثة، متصنعا المرح، وقال:

هاه خلف. چن ازنادك هم صار مثل ذاك ابو صلبوخ!

اتبع ملاحظته بضحكه، ثم رمى زناده الجديد بين يدي خلف وقال:

– ورّث بيه واخذه فردنوب.

تجلى البشر على محيا خلف وانطلقت اساريره. قلب الزناد بين اصابعه. نضحت ابتسامة من شفتيه المطبقتين وهو يفكر: انه يختلف عن زنادي لابد انه اشتراه في سفرته الاخيرة قبل اسبوع، لما تزل فتيلته على طية البائع. هذه الشدة تشبه العقدة التي تربط عقال الفرس. بوسعي ان عقدها. حل الشدة. حاول جاهدا ان يعيدها الى سيرتها الاولى. لم يفلح: حسن من الافضل ان تقسم الفتيلة نصفين. ليحتفظ النصف الآخر برونقه وهذا النصف يكفي لشهرين.

منذ متى اشتريت ذراعا؟ هذا يبدو اكثر من ذراع. والنصف الآخر اكثر

من نراع. كم يبقى الذراع؟، نبهه ابن صكر، الذي يليه في المجلس الى طول سكوته. غمزه خلف باشارة (تريث قليلا). اراد قدح الزناد ثانية ثم استدرك مع نفسه ولكن (عيب..) لا يصح العبث به في الديوان، وفي هذه الساعة بالذات، وقد يعلق احدهم مازحا او أية عبارة تستدعي الرد ويتشعب الحديث. الافضل ان الف سيجارة ثانية وان لم تكن بي حاجة للتدخين ولأرى قدحته. اشتعل الفتيل بقدحة واحدة: كم انا سريع التأثر!. اوشكت ان اسيء الى علاقتي الاخوية بسعدون من اجل خمس حاصل الديمة. تف على وسخ الدنيا بصق ورقة تبغ علقت بلسانه: اي قياس بين خمس حاصل الديمة وبين القيمة المعنوية لالتفاتة سعدون (تفضل يا خلف هاك زنادي) وسط هذا الديوان المزدحم. لو جمعت كل اساءاته ووضعتها في كفة لرجحت عليها نفحته هذه. ابن مهلهل ذهب تيزاب لن يصدأ ابدا (الكصب لو طال طوله يرجع لأصوله) انها لن تقدر بثمن مادي. صداقة عمر طويل (والماله اول ماله تالي). كما ان شك حسين زائد عن الحد ولا لزوم له. عاود سويلم الصكر اشارته. رفع خلف حاجبه وحرك رأسه بعصبية. فهم سويلم الصكر ان صاحبه قد عدل عن رأيه. غادر المضيف حانقا، وشكاه الى حسين، واصفا اياه بأنه من نوع الرجال الذين ينطبق عليهم المأثور (حط بيده خثى واخذ خبزته) ضحك حسين وردد:

- بالوزا يا حيف ما هيه رجال كوّم النمشا واخذ بيضاتها.

* * *

ولما اقترب موعد القسمة، سرى همس بين الفلاحين، وارتسمت علامات استفهام عن مقدار حصة المضخة.

باغتهم سعدون في ديوان الصبح، بحديث محكم، بدأه بنبذة تاريخية، ذكرهم بحصته التقليدية ٢٠٪ خالية من كل التزام ونفقات. وحصة المضخة كما تقول الناس، في كل مكان ٥٠٪ وعلى هذا الاساس يستحق من الحاصل ٧٠٪ لكنه يكتفي بـ ٦٠٪. وان القسمة ستجري (خمسين والثلاث) واشار الى اتفاقه معهم عشية المباشرة بأعمال الموسم، الذي نص على ان تكون القسمة مثل قسمة اصحاب المضخات الاخرى. وان صلالاً باشر القسمة مع فلاحيه على اساس الخمسين والثلاث.

انفجرت الازمة، وهبت العاصفة، لكنها لم تصل مضيف سعدون، امضى الفلاحون ليلتهم يتحلقون جماعات، يتشاورون لوضع خطط تنسف هذه القسمة الجائرة.

كان المتطرفون يقترحون جعلها ٦٠٪ للفلاح و ٤٠٪ لسعدون فيما يرى المعتدلون ان المناصفة حل مقبول. تسلل اكثر من وفد الى بيت حسين لاستطلاع رايه، وهو معقد الآمال في مثل هذا المشكل العويص، وهو المؤهل حقا للمجاهرة برفض هذه القسمة.

لكن احدا لا يدري ما هي الاسباب التي جعلته يؤثر الصمت ويكتفي بترديد اشعار ومأثورات غامضة مثل قوله (التجمعه النمله بسنه ايشيله البعير بساعه) او هوسته المعروفة: (اليوم اهون باجر ضوكه!).

عاودوا التشاور فيما بينهم. كان كل واحد يستمد العزم من حماس صاحبه: غدا موعد القسمة، ويكفي صوت واحد يرتفع بالرفض لتتناغم معه كل الاصوات. ويستقطب كل النقمة فتتحول الى عاصفة تجتاح القسمة الجائرة ومن فرضها وتوسد كل أمله: ما اكثر المتحمسين وسأطلق صوتي

بعد الصوت الاول.

* * *

اقبل سعدون ضحى، يتبعه ملا محسن، وعدد من المقربين. توتر الجو. ساد الوجوم. عود ثقاب واحد يكفي لاشعال حريق لا ينطفئ، توقف سعدون عند اول حاصل جاهز للقسمة. أمر الكيّال ان يباشر عمله. تلفت صاحب الحاصل الى الفلاحين المتحلقين. لمح في عيونهم شيئا من الاصرار. كانوا ينتظرون صوته. فمن أجدر بالصيحة من صاحب الحاصل. انتظر ان يرتفع الصوت من بين الفلاحين: اتريدونني جسرا تعبرون فوقه؟ لن اكون الجسر يا جبناء، ارتفع صوت الكيال: واحد.. اللّه واحد. اثنين.. اسم الحسن والحسين.. اربعه.. تربح يامن تصلي علنبي. ولم يرتفع الصوت المرجئ من بين الفلاحين.

لم يتوقف حسين لحظة عن (الذراوه)، متجاهلا سعدون وبطانته الذين كانوا يقسمون حاصلا مجاورا لبيدره. تسلل اليه خلف، متمتما بعبارات شكوى ممزوجة بشتائم للفلاحين الذين ارتضوا هذه القسمة الجائرة. لاحظ خلف ابتسامة حسين، عرف مغزاها، فأستدرك يوضح: لو لم تكن علاقتنا خاصة بسعدون لكنت البادئ بالمعارضة. لكن ذلك لا يصح من جانبي، ساعتها نصبح مضغة في الافواه، ويا لفرحة الخبيث صلال. عتبي على هؤلاء الذين لا تربطهم بسعدون اية رابطة لماذا لا يرفضون وممن ينتظرون العون، ومن ذا الذي يطالب بحقوقهم نيابة عنهم؟ اجابة حسين ساخرا:

- چا غير ينتظرون صاحب الزمان يطلع وياخذ حيفهم؟!

وشرع (ملا محسن) يسجل بدفتره حصة الشيوخ من كل بيدر..

واستمرت الابل بين المحلة والقرية مثل سرب النمل، فأرتفع تل من الشعير بلغت ذروته قمة المضيف، وكان عنبار الحنطة اقل شموخا. فوقف خلف قبالته، ذات يوم، يشير باصبعه ويذكر الكهل الذي قال عن المضخة أنها شغل ابليس (وزرعها ما بيه بركه) وقال له:

- هم بعدك اتگول المكينه شغل ابليس.. زرعها ما بيه بركه؟ چاهذا الطعام من شيب ابو خلف يومن شيب المرحوم والدك؟!

*　　*　　*

حوّم ناصر بن حسين ثلاثة ايام، حول الشاطيء، يرقب المكان الذي تنزله حسنه لملأ جرتها أو لغسل بعض الاواني، فلم يرها أعياه التسكع في مواجهة باب الحوش. يئس من التقاط اية اشارة تنبئه عن سبب احتجابها. فأمر شقيقته بالذهاب الى بيت سعدون لتستجلي الامر. ظل يخطر في فناء البيت يتجرع مرارة الانتظار. ركبه خوف من المجهول، لم يعين مصدره، خمن ان تكون مريضة. ولكن ليس هذا مبعث القلق. عادت شقيقته بما لم يكن بالحسبان: انها (محصنة) والمحصنة لا تتخطى عتبة الدار: وماذا وراء هذا؟ ارتج عليه الامر. هرع الى امه. الح عليها ان لا تؤجل مخاطبة ابيه حول مسألة زواجه.

اصغى خلسة لما يدور بين والديه. كانت كلمات ابيه اشبه بالسياط تلهب ظهره: سعدون لم يعد منا، انفصل عنا نهائيا. اصدقاؤه من الشيوخ وكبار السراكيل. لا يستمرئ الا النعوت التي يطلقها عليه الخضّارة واصحاب الابل. صار اسمه الرسمي (الشيخ) وطويل العمر. يجاب اذا صوّت بكلمة (عونك) ولا يخاطب الا بلفظ (محفوظ) واحسب أنه يتقزز من مخاطبتنا إياه

بلا القاب ولا أدعية بطول العمر توطئة للكلام. يخيل الي ان ناصرا لا يتمتع بحس سليم اذا لم يلمح هذه التغييرات. او لعله يطبق المأثور الشائع (ابو حاجه اعمى ما يشوف غير گضيانها)، احسّ ناصر بأن والده يذر الملح على الجروح التي خلفها بسياط كلماته حين تساءل ساخرا:

- شنهو معنى تحصين بت سعدون؟ (يا بعد احصان ابوي) ومادام صارت البت محصنة، شنهي رفجتها وي ناس مثلنا؟ من كون مرة الفلاح امحصنه (يا بعد احصان ابوي!) لازم يشتري الها وصيفه تخدمها. ومن كون مرة الفلاح بگبعة وسرسوحة (يا بعد كبعة امي وسرسوحتها) يا هو اليحصد ويا هو اليحضّن؟، وانشد بلهوجة (المايشوف بمنخله عينه العمى)، ثم كف عن إتمام الشعر لعدم ملاءمته الموقف، اطلق زفرة من منخريه ونهض مهوّسا:

طرخانه وطاحت يخلاطي!

* * *

أجهد سعدون نفسه، بحثا عن (روزخون) من الدرجة الاولى، ليقيم تعزية في مضيفه ايام عاشوراء: فتعزية الحسين مجلبة للرزق والبركة. تدفع الشر وعثرات الزمان. والى هذا فهي من مستلزمات الشيخة واصبحت من متممات الأبهّة.

ولما اقترب موعد هلال شهر محرم قنع بالسيد علي الكربلائي، وهو روزخون من الدرجة الثانية.

طلب خلف من السيد (الروزخون) إقامة التعزية في بيته نظير أجر مساو لما يدفعه سيد محمد (ابو شرارة). رفض الروزخون طلبه، زاعما بأن الاجر

المتفق عليه مع ابو شرارة هو اجر رمزي، وانه يقيم التعزية في بيته كما لو انه يدفع الزكاة عن ايراده السنوي (وزكاة السيد للسيد حلال). سأله خلف، باخلاص، ان يقرأ له (على گد افلوسه) لكن الروزخون اعتبرها دعابة ولم يأخذها مأخذ الجد، ولما كرر خلف قوله:

- سوها گطف.. علّي وجيهچ يا ابزيزينه.

اغتاض السيد الروزخون ونصح خلفا بعدم التعرض لتعزية الحسين على هذا النحو الساخر. ولم تفلح توسلات خلف الا بعد رفع الاجر، ومع ذلك اعتبره حسين اجرا زهيدا وطلب هو الآخر اقامة التعزية في ربعته بمثل الاجر الذي اتفق عليه خلف. ورتبت المجالس على النحو التالي: مجلسان في مضيف سعدون، احدهما صباحي والآخر ليلي، واختير العصر لبقية المجالس اولها في بيت السيد ابو شرارة وآخرها في بيت خلف.

اسر خلف لحسين، في اليوم الثاني من عاشوراء:

- فطنت للسيد الروزخون، بربعتي وربعتك ايسوي اقرايته طفّيرك يا گمر.. وبمضيف سعدون وبربعة ابو شرارة ايسويها من طول سنة الجوعه، اشكثر حچي واشكثر نواعي..

- انت موش سامع بأمثالنا انگول: لحيه وإلحيّه ومره وامريّه هسه ضيف الهن اقرايه واقريّه!

وفي اليوم الخامس من عاشوراء داعبه حسين متصنعا الجد:

- شفت اشلون؟ بربعتي وربعتك يقرا على ربع الحسين جون الاسود وزهير وبرير وزعاطيط مسلم بن عقيل، وبمضيف سعدون يقرا على العباس

وعلي الاكبر وابطال بني هاشم، وين اليهدل الايد.

اجابه خلف بأستسلام:

- جده ينتقم منه. كام ايشرّب النا على كد افلوسنا!

*　　*　　*

همست له شقيقته، قبل طلوع الشمس، تنقل رسالة مقتضبة من حسنه، لم تتمكن من ابلاغها ليلة امس: تقول ان الحوش يخلو ساعة يقام المأتم الليلي في المضيف لان امي تذهب مع نساء القرية ويحطن المضيف لمشاركة الرجال بكاءهم ويتفرجن عليهم ساعة يلطمون وابقى وحيدة في الحوش طيلة ذلك الوقت.

ادرك ماذا تعني الرسالة، وفكر بالذي ينبغي عمله. حمل مسحاته وانضم الى الحشر. جاش صدره بالسر الخطير وشرع يحاور نفسه:

كيف السبيل يا شاطر!؟ تمنيت الفرصة وها هي سانحة. ومن يضمن. وماذا ستقول. واذا ما جد حادث. واذا ما ارتفع لسان الفضيحة مثل حريق بيدر واذا ما؟ اسمع يا شاطرا يخفي جبنه وراء حكمة كاذبة - ليست غبية الى هذا الحد فتبلغك دعوة بالحضور دون ترتيبات صيانة ولكن افترض وعلى حين غفلة طلب الشيخ - اللّه إيجثر الشيوخ! -شيئا ما؟ ما اكثر الاكواخ و(كباب المطال وكواير الشوك). افرض انهم اغلقوا الباب. اغلق فمك يا جبانا يتعقل وتسور الحوش. هل تسورته من قبل؟ وكيف يتسور اللصوص ما هو اكثر ارتفاعا؟ وماذا عن الحارس عبيد المنتاز؟!.

أطلّ عبيد من وراء السد الترابي يراقب عملية تطهير البترا بأمر من الشيخ سعدون. حياه وسأله عن سبب تأخره:

– اللّه ايساعدك.. اليوم متعطل عن جماعتك.

– هله بيك. ابن الحلال بذچره..

– انت ويامن ذكرتني؟

– بيني وبين روحي!

ضحك عبيد المنتاز، ثم سرعان ما انتابه القلق وفكر: أتراه لمحني البارحة مع صالحه؟ لقد رأيت شبحا يترصدنا. لكنها قالت: امرأة تقصد الخلاء. فلأستوثق الخبر:

– انته هم تلطم بالليل؟

– الليل؟ لطم الليل اخليه الك. آنه الطم با لنهار ما اتشوفني اشلون امهدل –الليل الك وحدك!

غادره عبيد مقلقا: لا شك في انه يعرف. ما كان ينبغي اتخاذ طرف الصيرة الشرقي مجلسا لنا كل عباراته تؤكد ذلك.

تنبه ناصر الى تخلفه عن زملائه. وكان السبّاق لانجاز (طرحه) في كل يوم. نفض غبار الكسل. تحركت رجله اليمنى بسرعة تضغط دوسة المسحاة وترتفع يداه بخفة وحيوية. وكأنه يجهز على بقية النهار ممثلا بحصته من العمل. كانت مسحاته تستدير كالمروحة وهو يعيدها خالية من التراب، لسانها يلمع تحت ضوء الشمس وخلال ثوان يرفعها مملوءة بالتراب ليلقيه بعيدا عن (المترب). لم يمض طويل وقت حتى أنجز عمله، حمل مسحاته، دون ان يأخذ قسطا من الراحة.

قصد المكان الذي يعمل فيه حمزة بن خلف ليساعده على انجاز الطرح، كعادته كل يوم. رمى حمزه آخر شلة فأمسك مسحاته من وسطها، كما

يفعل الرجال بالبنادق اثناء الهوسة وقفز في الهواء معابثا وهو يردد احدى هوسات ثورة العشرين سمعها مرارا من حسين والد ناصر:

- يتوزع واطروح انشيله! يتوزع واطروح انشيله!

* * *

اكل ناصر رغيفيه على عجل، مبعدا رأس البصل الذي قدمته امه غموسا للغداء. ذهب ليستطلع. تفحص الطرقات والاكواخ المحيطة بالحوش، كأنه يراها اول مرة. سار بمحاذاة الغراف. سر لوجود بعض الاكواخ الملاصقة لضلع الحوش الجنوبي: لم الحظها قريبة هكذا من قبل ما أنسب مكانك هنا يا (كَبة) المطال. من (الصيرة الى كَبة المطال). اذا لبدت في تلك الصيرة تبينت الداخل والخارج بوضوح. تطلع في السماء: حرنت الشمس هذا اليوم مثل ثور الزيادي. ترى هل يحملها ثور مثل ذاك الذي يحمل الارض. هل رأيته يا ثور. مالك وللثيران تفحص الحيطان. تذكر مجلس التعزية في بيتهم. رجع لتهيئة الربعة. لم تبق على الموعد الا ساعة. نصف ساعة تدوم التعزية، بعدها نصف ساعة في بيت خلف. تغرب الشمس. يؤذن السيد الروزخون يستعد للعشاء ياكل زقـ لا تتعرض يا ناصر وانت مقبل على شدة. كل شدة وراها فرج. أي فرج منهم؟ فرج الخشن، فرج الحداد. أم فرج الصياح الخضار. لا تهلوس يا ناصر انصت انصت للتعزية. كان آخر عهده حين قال ياليتنا كنا معكم سيدي: لازال يتحدث، جاء مزاجه اليوم وطالت الحكاية.. (سامعيهن الف مرة يا بعد چبدي)، اخرس، لا تكفر، لا تتعرض تعزية الحسين، لا اقصد التعزية بذاتها افديك، يا ابا عبد الله يا بطل. لكن هي نفس الحكاية رددها الف مرة، تستهويه

البطولة ومع ذلك لا يخرج في الليل يتبول، يخاف (الواوي) يستنجد بعبيد المنتاز. يقف قريبا منه. اللّه يبلي سنتك يا عبيد (حسبالك تيس احصان، ابو التيوس) الف استغفر اللّه ياربي. فضني يا اغاتي.. سامعينهن يا بعد چبدي لا اتسويها سرمگه، إقرا الفاتحة وخلني اشوف شغلي. الف استغفر اللّه ياربي.

ولما خلت الربعة، انصرف يعد نفسه للقاء الليلة. حلق لحيته، سوى شاربيه الخفيفين بعناية، تفحص وجهه بالمرآة: كانت صغيرة تلك. استقطعت ثمنها من الغداء. اشتريتها بثمن الغداء كله. أتراها على ولعها الاول بالمرآة، ويقول ابن المسلوگك بنيان منتاز. تف على الطين وبنيانه. لا اتسويها بعد -فالح نايم بالربعة وتطب وتنسف الستار من يم راسه وتتمدد وياي على الفراش. أسوّيها وأسوّيها وما يردني بس عزرايين. اسم اللّه عليك من (چبحايين).

تمشى على جرف الغراف، دونما قصد محدد، كان يتهرب من مواجهة ابيه: ما اسهل ان يقرأ خبايا الصدور من نظرات العيون، يحلو لخلف ساعة اعابثه: لا اتصير جنّي مثل ابوك!! سمع اولاداً يتحدثون عن اللطم في مضيف الشيوخ قال احدهم:

– دريول المكينه سوّا مشعل مال نفط اشكبراته. يشيلونه جدام التعزيه لو طلعت اللطّامه تفتر بالجريه.

– ليش ما نطلع الليله؟

– السيد الروزخون گال ليلة الاخرى يو اللي وراها!

ابتسم ناصر وكأنه يعبر عن الامتنان للسيد الروزخون: حسنا فعلت يا

مولاي حين أجلت طواف الموكب فما يدريني ويدريك بالذي يحدث لو طاف الموكب. وقد وضعنا خطتنا على اساس اللاموكب. من الافضل ان تمنعهم الليلة والليلة التي بعدها والبعدها والبعدها. لا تخطرف يا ناصر اي بعدها، لم يبق على ليلة عاشوراء سوى ليلتين. حدق في الشمس المصفرة: حرن ثور الزيادي! ماذا لو حرن الثور الذي يحمل الارض على قرنيه؟ كيف؟ من قال لك انه يسير، يا ثورا يحمل على رأسه (العگال)؟ الم تسمع بأن الهزات الارضية هي لمجرد انه يراوح الارض من قرن لآخر بحركة متزنة؟ ماذا لو أجفل الثور؟ سوف تتهدم.. يتهدم حوش سعدون ولا شيء سواه، ولن يضير اهل الخيام شيئا مروتك يا ثور.. آه لو تسلطت عليه لنغزته بالخنجر تحت ذيله. (فيعنفص) وينهدم البنيان (المنتاز) وتنطبق حجرة المضخة عليها (ما چنك زارع يا بده) وتعود حسنه الى بيت الشعر، ارفع الستار واتمدد بلا خطط وتدابير. مروتك ياثور حرج جرنك ياثور ولو ترغى ياثور. تناهى اليه صوت السيد الروزخون يؤذن للمغرب: يتحتم على ان اعود وابدو كما كنت في كل امسية. رأى والده يستقبل القبلة محركا رأسه مهينما يداعب حبات المسبحة. وانهى التسبيح والصلاة بدعائه الاثير:

– اسألك حسن العاقبه، ياربي حسن العاقبه. ما نريد غير حسن العاقبه. كل شيء يسير على ما يرام. هكذا طمأن نفسه، وهو يتابع الرجال يدخلون المضيف ويتراصفون في المجلس (چدس التمر بالحلان)، كما يقول خلف. واخذت بعض النسوة اماكنهن خلف الستار: ولو لا هذا الهلال الوقح الذي شب عن الطوق لما كان ثمة ما يدعو لكل هذه الاحتياطات.

من هنا لا اميز الداخل والخارج. سيكون حالي كذلك لو دخلت وخرجت.

ما اسرع خروجك يا جبان هل انت خائف؟ دخلت وخرجت! دخلت ثم كيف ستقبلها بعد هذا الدهر الطويل؟ وماذا عن النهدين النافرين لابد أنهما اصلب وأشد مقاومة! بالفرط حساسيتها من لمس النهدين!. تجفل. اقبلهما، دعها تصرخ، الحوش خالي، ربي حسن العاقبة، فرك راحتيه ببعضهما: اقرا وخلّصني!. باغتته عجوز تخرج من بيتها مهرولة لتدرك التعزية (كش عرضة ارنب) لا تكن سخيفا ابي يهزأ من غافل لانه يخشى ذكر الجن والطنطل في الظلمة ويرجع ادراجه اذا استقبلته الارنب صباحا فلا يعمل طيلة ذلك اليوم ويقول له ابي (انته سليت يا خويه. حتى جدتي ما جانت تعتقد مثلك بالخرافات) اين هي الارنب؟، اشويها وآكلها كما يفعل البدو. دع الارنب ولحم الارنب فكر بالغزال. (يا خشيف الوارد بشاطي الحلال) لمح امرأتين وطفلة تغادران الحوش.

فقال لنفسه: احداهن امها والثانية (نعلة والديها) وتلك الصغيرة شقيقتها ياثور اللّه (حرج كرونك). لم يبق في الحوش سواها من ادراك؟ رفع الجبن رأسه. ضج المضيف والخلاء المجاور بالصلاة على محمد. ورددت جنبات الحوش صدى الاصوات المتعالية. الثالثة باعلى اصواتكم: اللهم صلي.. احس ارتعاش في ركبتيه: اتخسى.. خطا سريعا. ارتعشت مفاصله: اتخسى يا حيف واللّه. سار بموازاة الضلع الشرقي محتميا به عن ضوء القمر. تناهى اليه صوت الروزخون.. ياليتنا كنا معكم فنفوز واللّه فوزا عظيما يا بعد چبدي صدكك الليله فوزا عظيما دخيلك يا مولاي يا ابا عبد اللّه لا تحسبها علي ذنب. الدنيا تريد والآخره تريد. وعبدك وابن عبدك گلبه صاير عطّاب.

تلفت الى وراء. قفز ليتخذ من ظلال الاكواخ سترا. سار بارتباك شعر بضعف ساقيه عاود زجر نفسه: اتخسى يا جبان الرجال اتفوت على الرصاص (ابوك عگل ركبته بالعركه). انا اخو راشده، ياحيف والله. وصل في سيره المتعثر قبالة الباب. ذعر لمرأى شبح يهم بمغادرة الحوش. التصق (بالصيرة). كوّر نفسه مثل قط يتوثب للعراك. سمع وجيب قلبه بوضوح. يا ربي حسن العاقبة لمح وجهها على ضوء القمر. رفعت ذراعها مشيرة اليه بالتقدم وكانت تتابع سيره مذ غادر ضلع الحوش الشرقي. قفز دون حذر. بلغها بثلاث خطوات حسبها مسيرة مضنية، نشرت عباءتها عليه حالا اقتادته الى حيث لا يعلم. طوقها بذراعه الفى اصابعه دون سابق تدبير في ذروة النهد، اجفلت فقال لنفسه: فكرت بالامر. اخشى ان تسمع وجيب هذا القلب الجبان، هانت الشدة. كل شدة وراها ادركت بحس مرهف انه سيشغل عن كل شيء ولا يفهم شيئا مما يقال له، اذا غرق في لجة العناق، وتخدر بالقبل. اشارت عليه ان يتبين طريق الطوارئ، اذا ما تعذر خروجه من الحوش اوصلته الى دكة التنور في ضلع الحوش الغربي واوضحت له: بوسعك ان ترقاها وتتسور الحوش فتجد نفسك في المكان الخالي لا يفصلك عن الغراف سوى اذرع. فكر وهو يهصر عودها بشغف: يالك من رائعة، لقد خمنت. ومثلما انت بارعة الجمال كذلك بارعة الذكاء وقد وضعت تحت تصرفي عوامة للنجاة اذا ما هبت العاصفة على السفينة وأغلق باب الحوش. آه يا ثور مروتك يا ثور هكذا تحرك يا ثور. حملها بين ذراعيه: لقد امتلأت عافية ونضجت مثل قمح أن حصاده ليس عبثا الغاز الشباب (حنطتنا طاحت) يا منجلي يا بو يدّه. مروتك يا ثور. دس وجهه في زيقها

شهق بكل ما في رئتيه من قدرة على استنشاق العبير من بين النهدين. همست بصوت متهدج: ليس لهذا بعثت في طلبك. ثمة امر خطير لم تتوضح لي خطوطه كاملة. اجمله لك اعتمادا على حس لا يخطئ ولا يخون صاحبه وهو ان اهلي قد عدلوا عن تزويجي لك. خفت غلواؤه. فتر حماسه. تساءل واذن؟ وما الذي نصنعه؟

بكت حسنه. اختلطت اصوات الرجال بصراخ النساء وضج الجميع بالبكاء. تخففت قليلا من النشيج. قالت انها تفضل الموت اذا لم يتيسر لها الاقتران به.. وانها على استعداد لما هو اسوأ في نتائجه البعيدة ولكن لابد منه. تفكر بالهرب معه الى اي مكان في الدنيا تراخت اصابعه. حرر خصرها كف عن العبث بجدائلها ساد صمت ثقيل، فيما ضج المضيف بأصوات اللطامين ووقع اكفهم على الصدور. وعدها ان سيبذل المستحيل. وبعد ذلك يتخذ القرار الحاسم. ادركا ان المأتم يبلغ نهايته تواعدا على لقاء آخر. لفته بعباءتها وسارا الى باب الحوش. تطلعت يمنة ويسره، ثم حررته هامسة بأشفاق يشوبه القلق. دير بالك.. الله وياك.

شل تفكيره ووجد نفسه يدور في دوامة (الهرب): يا له من سلطان اهوج. ألم تسمع من قبل كلمة (ناهبه) مقرونة بكل الاحتقار نسيت انها ابنة رئيس العشيرة. وينعقد الديوان –الكل يحدق في الارض لا يجرؤ احد على النظر في وجه صاحبه. ويتهرب كل فرد من ابناء العشيرة عن ملاقاة ابناء العشائر الاخرى. (ابن حسين نهب بت سعدون). أهذا ما كان يريده (ربي حسن العاقبة) اية عاقبة سيئة. لا اظنها تعني ما تقول. واذا كنت تقصدين تحريضي فهل بوسعي عمل شيء؟ كيف يحدث هذا. لقد حدث

وتحدثوا عنه طويلا هجرت زوجها رئيس القبيلة وهربت مع الخادم. وبنت الآخر مع سايس الخيل. يحدث هذا ويصير حكاية للعبرة. ولن اكون حكاية. ولن اخادعها بصراحة لا اقر الفكرة وهذا قراري الحاسم.

ما بك؟ هل تشكو مرضا؟ العمل مرهق. لم تصدقه امه وخمنت اسباب الذبول وشرود الذهن. اقلع عن محاولاته الاولى: انه كما يقول خلف (شبوط يگيش الماي بذيله) ولقد گيش الماء وعرف الحقيقة قبل ان تتحول الى كلمات. سيرجع الرجل في كلامه وقد رجع وليس من امل الا في معجزة خارقة للعادة وقد يعنفص الثور وتتهدم اسس وجدران، وهذه المضخة الملعونة التي قلبته من حال الى حال. ولا ييأس من رحمته الا القوم الكافرون.

استعاد تفاصيل مغامرة الامس. اطمأن الى سلامة الطريق الذي سلكه واعجب بخطة الطوارئ. لم يتعجل التحويم حول الحوش. وجد نفسه يصغي بخشوع الى ابيه مرددا دعاءه الاثير بعد صلاتي المغرب والعشاء. حسن العاقبة ياربي. ما نريد غير العاقبة. سار على مهل. لمح امها تغادر الحوش. ارتفع صوت المستمعين بالصلاة على محمد. بلغ ركن الحوش الشرقي: لابد انه شيء آخر غير الخوف. لبد في (الصيرة) المواجهة لباب الحوش لمحها تملأ باب الحوش. اومض (العران) تحت ضوء القمر. لم ينتظر اشارتها اندفع نحوها، التف معها بالعباءة، قادها الى مكان خلوتها البارحة بدلا من ان تقوده هي، قالت في سرها: يتحتم علي أن أزيل ما علق بذهنه ليبعد فكرة الهرب عن كل الاحتمالات المكنة، انها فكرة طائشة ولن ارتضي لنفسي تلك السمعة القذرة فلأحصر تفكيري بأمرين لا ثالث

لهما: الزواج منه او الانتحار. ينبغي ان يفهم هذا جيدا. استنشق عبير المحلب والحناء. تفتحت كل الازهار. اشرق صدره بفرحة غامرة: لن اضيع دقيقة واحدة في ثرثرة لا تغنى ولا تسمن فلم تخلق الشفتان للثرثرة في مثل هذه الساعة نقل شفتيه على خدها ونحرها وبلغ بهما الوادي المقدس بين النهدين. اقلعت تماما عن التفكير بالكلام: ليس هذا وقت الموعظة. كان صوت الروزخون واضحا يروي قصة عرس القاسم على نحو درامي.. لعنت يزيدا واتباعه الذين تسببوا في ترميل عروس منذ اليوم الاول. لو كان الامر يتعلق بكم يا اهلي. فلتتمرغ وجوهكم في الوحل ولتنكس رؤسكم. سمعهم يضجون بالصلاة على محمد في نهاية المأتم: لم تبق الا فترة اللطم وما اقصرها: تعجل انهاء المجلس لعل كثرة الطبيخ تحول بينه وبين الاستمرار في القراءة (مال الاحدار يا اغاتي)، رحمة على ابوك يا خلف سواها كطف گام ايشرب النا على گد فلوسنا ولكنه في مضيف سعدون هل بدأ يشرّب لسعدون؟ لا يا مال النويعم وأنه داخل على جدك. التصق بها مستمتعا مدت رأسها من باب الحوش تتفحص الطريق، مد رأسه من تحت ابطها، رأى شبحا، شبحا آخر في الطرف الشرقي من صيرة احميد ابو البينه. همست له:

– هذا عبيد بن غافل وصالحه بت ابو البينه.

اشارت عليه ان يتسور الحوش زيادة في الحيطة، اضافت: ان علاقات عبيد وصالحه تمتد الى زمن. ربما تحابا في نفس الوقت الذي بدأت تغازلني فيه وكنت متوحشة بعض الشيء. ان صالحة صديقتي ولا تتحرج من رواية مغامراتها مع حبيبها كل مرة، وتعجب مني لماذا لم اعشق حتى

الآن. لام نفسه وهو يصعد دكة التنور: كان علي ان اجرب عملية تسور الحوش قبل الآن.

(هي اتچّبش، هي غربال) يا غشيم. وجد نفسه خارج الحوش. بينه وبين جرف الغراف بضع خطوات.

* * *

كان بيت حسين مثل خلية النحل، نهار التاسع من عاشوراء شغلت الام بظفر جدائل نصرة بالمحلب، وأوقد النار نعمة استعدادا لتحميص الحنطة المنقوعة، وسأل اباه:

- بويه.. انته هم تاكل جلي؟

- مال حنطه؟

- ايه حنطه.

- اخاف على ضروسي.

- امي عدها سمسم ضامّته لنصرة..

- من تجلون سمسم اطوني وياكم.

نشرت الثياب المغسولة على واجهة البيت. لبس ناصر دشداشته العتيقة، واعطى الجديدة لتغسلها امه. لاحظ اهتمام زوجة خلف بدجاجاتها. كان حمزة يطاردهن بلا كلل. سمعها تناديه:

- ولا اتخلي ولاوحده ترا الفروخ ايبوگونها

سرقنا الدجاج اكثر من مرة في ليلة (الحيّه(١)) اللّه يبلي سنتك يا عبيد يتمتع بحاسة شم ثعلب. يعرف اين تخبئ العجائز البيض والدجاج تبدلت هوايتنا من قنص الدجاج الى قنص الفتيات ليلة (الحيّه)*.

تساءل نعمة:

- بويه صدگك الجداوه بليلة الحيّه ثواب؟

- اي بويه ثواب..

- وبوگك الدجاج؟

- كله ثواب. كله ثواب

ابتسم ناصر بلا تحفظ: ولعل ترصد الفتيات ومعابثتهن ثواب وليس اكثر ثوابا منه الا مضاجعة المتزوجات اللواتي اجبرن على الزواج من الهدلان والثولان!

عاد نعمه ثانية يسأل:

- لو بگنا الليله دجاجة تاكل ويانا للثواب؟

اجابه حسين:

- انشد والدتك..

- انشدك انته.

- لا انشدها، منطرف الثواب، بليلة الحية!

ابتسم ناصر: لابد ان لهما مغامرات مثيرة في عهد الشباب. يوم كانا متحابين. شغل بحلاقة وجهه. تطلع في المرآة ثانية: هذا افضل ما في تقاليدهم..

---

*الحية: اصلها حجة، حيث يقلب حرف الجيم ياءً في معظم المناطق الجنوبية وحتى في بعض دول الخليج، و(الحية) هنا المقصود بها ليلة العاشر من شهر محرم حيث كان يسهر الناس ليلتها حتى الصباح.

قالت ان التحصين لا يحول بين الفتاة وبين احياء ليلة عاشوراء. ليس لاحد ان يتجرأ فيملي قرارا بالمنع. ومن اشاع فتوى لبس البياض للفتيات في ليلة الحيّه؟ البياض مستحب ولبس السواد مكروه. (ابو التيوس) كل ملابسه سوداء.

لم ارها من قبل في ثوب ابيض. هل تلبس ثوب رجل فوق ملابسها مثل البقية؟ هراء. لابد انها تقتني ثوبا نسائيا ابيض. من كان لها عشيق قالت احيي الليلة حتى مطلع الشمس واستوهب زوجي ثواب الليلة. فأن لم يكن في حياتها رجل آخر تذرعت بالقول ما دامت المرأة وما تملك ملكا لزوجها وما دام الثوب المتأتي من سهر الليلة يسجل رصيدا في حساب الزوج لينتفع به يوم الحساب فلم هذا السهر ووجع الراس؟ وهكذا فلكل فتاويه مثل السيد علي الروزخون ولا يقولها صريحة الا خلف بلابوش دنيا. ولعلها تقول لامها احيي الليلة داعية لابي بالخير وطول العمر وتقول لوالدها بنت ابو البينه ادعو لك بكثرة الغنم. وخلف وحده قالها بلا مداهنة. سألته امه:

– ليش ما تلطم وي الاولاد؟

– الليله الطم.

– ايه.. يبعد امك.. حتى يطيك امرادك.

استقبل حوش سعدون، بعيد غروب الشمس، شابات القرية، ضاقت بهن حجرة حسنة. حللن الظفائر ومشطنها، ولما أكملت حسنة تسريح شعرها، تناولت زجاجة عطر حاد وطيبت شعر رأسها الذي يداعب الوركين. بدت في ثوبها الابيض كالغرنوق –على حد تعبير صالحة – اقترحت احداهن

تعليق الجرس في عنقها لتقود الجوكه، شكرتها حسنة ورشحت صالحة لهذه المهمة.

انطلقن ناشرات الشعور، مرددات:

- الليله حيّه للصباح –ارياح يا من تستراح

عبق الجو بأريج الحناء والمحلب ورائحة نسوية متميزة. اهتزت الارض تحت اقدامهن، ولما يزلن في عنفوان القوة. اتخذن وسط القرية ميدانا للرواح والمجيء.

انطلق موكب الرجال من مضيف سعدون، بمحاذاة الغراف يتقدمه مشعل كبير، وردد شاطيء النهر صدى لطمية الرجال:

- درعم العباس واظلم كونها وصاحت الفرسان طب طاعونها

جاب الاولاد والاطفال كل مكان في القرية، وقفوا عند كل بيت يستجدون الحبوب مرددين:

- الما تطيش لطّاها عميه وادگ بدواها

وتقاطروا مجموعات، على بيت البقال، يبادلون حصيلة (جديتهم) بالتمر والخلال.

بلغ موكب الرجال بيت السيد محمد ابو شرارة فبدلوا (اللطميه) بأخرى، ثم استراحوا لشرب الدارسين، قفلوا بعد ذلك عائدين الى مضيف الشيوخ. تعجل بعض الشباب فض الموكب ليترصدوا الفتيات. مستمتعين بالتحويم حول (الجوكه).

ولما انتصف الليل خف الضجيج في القرية. تعبت الكلاب من مطاردة الاولاد. آوى الشيوخ والعجائز الى مراقدهم. استبد النعاس بالاطفال وكثير

من الاولاد.

حاول ناصر عبثا تمييز صوتها خلال فترة الاستراحة: يحلو له القول اذا ما ضج الديوان –خايبين شو سويتوها مثل ديوان النسوان! وانه لكذلك لابد أنها تعبة لا تتكلم. حتى وان تكلمت. ان لها صوت بلبل. هل سمعت بلبلا في حياتك؟ يا بلبل اخرس! اذا صار البلبل أخرس يصلح لاي شيء؟ يذبح ويؤكل. بدأت تخطرف يا ناصر. أنظر غادرت المكان اكثر من متزوجة.. وفي هذا فتوى كذلك. اللّه يبلى سنتك. مضاجعة الزوج في هذه الليلة ثواب (كلشي ثواب)

انقسمن الى مجموعات على نحو فوضوي. وفي احدى المجموعات تقمصت فتاة جريئة شخصية العاشق وراحت تردد:

– حبيت واطوني مطيّه   والرجل حسره عليه!

واخرى اخذت دور فتاة اجبرت على الزواج من شخص لا تهواه وثالثة تمثل دور الضرة المضطهدة.

بادرت احداهن تذكّر كل واحدة بواجبها لاعداد طعام السحور.. قاطعتها حسنه قبل ان تلفظ اسمها

– ادري ادري. عليٌ الدهن، هسه اروح واجيبه.

تسلل من مكمنه على عجل ليستقبلها، ان امكنه ذلك عند باب الحوش: عليها الدهن. ايدك بالدهن. لاتهذي. عليٌ الدهن. صرنا دهن ودبس. ايخر الدهن من اعچوسه، ادهن السير وهوه ايسير. دهن الورد! صلال يحط لشواربه دهن الورد منعول والدين بنيان منتاز. لا اتخطرف! علي الدهن. وصف له ابو التيوس دهن الخروع الف استغفر اللّه. اللّه يبلاك. الدهن.

دهن وتقط للمكينه انهجرت انشأ الله. انجب الدهن على الدبس. ادهن سترك بجكاره. لا تهذي. لمحها تسير بسرعة كأنها تسبح في الفضاء. تراءت في ثوبها الابيض تحت ضوء القمر مثل شهاب يخترق الافق: لابسه الشاكر وجاليته كلب يا بعد جوز الچلاوي والكلب. ولكن ما هو الشاكر؟ مستحيل أن يكون اجمل من هذا عيب الابيض ان اي شيء يؤثر فيه. النهر مثلا القى حجارة امامها ذعرت. ثم اطمأنت. رفعت ذراعها بإشارة، ثم مرقت داخل الحوش. تبعها على عجل. هرولت تستقبله عند الباب، منكرة دخوله قبل ان تعطيه اشارة الدخول: من يدرينا انهم نيام؟ كانت في غاية القلق من هذا اللقاء المرتجل. لم تستجب لقبلاته ولمساته المثيرة. حثته على الانصراف، مفضلة تسوره الحوش: فما اكثر المتسكعين هذه الليلة. احدثت قفزته رجة اثارت انتباه الحارس، (عبيد المنتان) دار حول ضلع الحوش الغربي، فرأى رجلا ينزل الشاطئ. اطلق رصاصتين متتاليتين وصاح بصوت النجدة.

- حيهم حيهم

تجمدت في مكانها وتسارعت دقات قلبها اطلق رصاصة ثالثة حين بلغ جرف الغراف. آه يا مستورة (بلاش) ضعتي.. ان لم تقتله الرصاصة، فتحت باب القيل والقال. كان ناصر قد بلغ حجره المضخة، قفز بخفة المذعور، متخذا المحمولة ستارا، توجه راكضا ناحية المضيف. صاح السيد علي الروزخون من تحت الغطاء (هاي شكو؟) اجابه ناصر همسا: ابو التيوس هذا رصاص وچيلات. ابشرك آنه هم مثلك صرت ابو تيوس!. صاح ناصر ولما يتجاوز (رفة) المضيف:

- الزم روحك اجيتك.

لم يعد بمقدورها الوقوف. تهاوت في كوخ المطبخ.

عاود ناصر صيحته. بصوت متماسك:

- اجيتك الزم روحك.

سمعته بوضوح، تنفست الصعداء. انهمرت دموعها:

يا ابا عبد اللّه ما ايخيب الينخاك. الستر. اريد الستر. ما اريد غير الستر.

* * *

اصغى حسين، ببصيرة الناقد والمجرب، لرواية عبيد المنتاز عن الحرامية. كف عن مداعبة مسبحته وفكر: اعرف هذا الصنف من الحرامية. في الليلة العاشرة من الشهر والقمر لا يسمح بتلصص عصفور فكيف تجرأ اللص على حوش سعدون الذي يحرسه خفير؟ ان في الجو رائحة عبث وبعضه يورث متاعب تدق العنق ومشاكل تقصم الظهر ولات ساعة مندم (بعد اللطم شيفيد للمضى اصوابه). لم أره مع اللطامين طيلة ليالي عاشوراء وترصدته فلم المحه في التعزية الليلية. ربما دفعه اليأس لارتكاب حماقة يمتد أثرها الى أبد الابدين. ما اسهل ان تصدق الفتاة. وسرعان ما تنخدع وما اضعف مقاومتها في الليل. وسحر الشياطين كله ينطلق في الليل محوما فتصاب العزائم بالخدر ويغشى العقل ضباب يحجب الروءيا (وتعال يا عمي شيلّني)، وانه لحمل لا ينهض به الف بعير. يا حسين (اليسمونك داهية) ويهرعون اليك في الملمات ((فنك تطلع هالمطي من ها لوحله)) لا حل الا الحل. اجمع كل سادات المنطقة ووجهائها (مشّاية) عليه

لعله يحرج –وان لم يكن ذاك السعدون. لكنني على اية حال استريح الى نتيجة (اطك البيضه بهالحايط) لأبرئ ذمتي ولا صبح في حل من قول القائل. فعسى ولعل (اطفر النهر ما دامه ضيج). ولعل وعسى

(تندفع بگصبه كبل ما تحتاج مردي) فأن يئست (فالآياس اعدال شبعه)، من ثم افكر بالابتعاد عن حافة الهاوية (والباب اليجيك منه ريح سده واستريح) وان هو الا واحد من آمال أشعب (ولكن اطرد الخيال بلكى ايطيح منه ارچاب) والستر من اللّه. واسألك ياربي حسن العاقبة.

الفصل السادس

شاع خبر في القرية على نحو مفاجئ، كأن المصوت الذي يبحث عن مفقود مع غروب الشمس، يسير في القرية طولا وعرضا مصوتا:

- يا سامعين الصوت صلوا علنبي، اولكم محمد وتاليكم علي، على من شاف وسمع ولزم الحاجة الفلانية.

تماما كما لو ان هذا المصوت قد جاب القرية وهتف بصوت مرتفع:

يا اهل القرية اسمعوا واعلموا، الحاضر يبلغ الغائب ان حسنة بنت سعدون قد خطبت الى (شعيبث بن صلال)، وتمت اجراءات الخطوبة وقرئت الفاتحة.

تهامس اهل القرية يلوكون الخبر، وفي كل فم له طعم ومذاق. انكر الخطبة غالبية الكهول والشيوخ. وتمطق بعض الشباب ومضغ ريقه. وسال لعاب المحرومين، وهم يصغون لوصف، مبالغ فيه بعض الشيء، عن فتنة حسنة وجمالها الذي اكتمل خلال فترة التحصين. تهامست الفتيات بما سمعن عن قباحة ابن صلال ودمامة وجهه، اشفق بعضهن على حسنة الجميلة الفاتنة، وحسدنها اخريات لانها غدت مخطوبة ابن شيخ يملك مضخة ومقاطعة واسعة. وقال الحائك لصديقه بقال القرية مع (حسرة) حرمان:

- اويلاخ يا ابو عبد، بت سعدون شفتها من جانت تطلع للشط تملي ماي، حسبالك زابط، وهذاك ابن صلال هم شايفه، يچفيك شره، چنه سلوكي مال بدو، ما يستاهلها!

ضرب خلف كفا بكف وقال حانقا:

- هاه.. انا ابو حمزة! رحمه على ابوك يا حسين، چيف لنك زله

صدگك، وتبول من صرتك، وچنت عارفها وتهوس (بس لا يصفر لك وترومه!)

اضحى حسين نهبة لمشاعر مختلفة. احس ان كبرياءه قد جرحت، مع ان شخصا في القرية لا يعلم امر الخطوبة السابقة. اشفق على ولده من صدمة قد لا يحتملها، وازمة ربما استعصى عليه تجاوزها بسهولة: قلب الامر ساعات مع نفسه. استشعر في النهاية انه يتخفف من كابوس كان يجثم فوق صدره. ولم يعين ماهية الاحساس الذي غمره، اشبه بالعافية تزور المريض. انصرف الى ترديد بيت من الشعر، يبحث عن مواطن ضعفه، في المعنى او القافية. باغته خلف بزيارة غير متوقعة ثم عاجله بالسؤال عن الخبر المثير. اجابه حسين:

– اي نعم سمعت. سمعت يا ابو حمزة. هاي الاصول الكحيله لازم تتشبى من اصيل.. ومعلومك عشيرة سعدون كلها كدش.. ولهالسبب دور الها فحل اصيل ايشبيها!

ثم انشد البيت قبل تنقيحه:

لا حجه الخير ابضناها اللي ضنت خلفة مهلهل لصلال اذعنت

علمهاين چن عشيرتنا ادمنت امطوبسه وصكعاتها ابهاماتها

وتلقت القرية بفتور نبأ خطوبة هلالة بنت صلال الى فالح بن سعدون، فقد تبددت شحنة المفاجأة، واستأثر النبأ الاول بكل الاهتمام، وفي النهاية امتزج الخبران وصار احدهما متمما للآخر.

وعقب خلف على النبأ الثاني بقوله:

- سواها الخبيث صلال.. ربطها سدر وچوتلاني!

*　　*　　*

كانت الارض رخوة هشة، بفعل (الطربيس). وكان اول ايام الحراثة الخريفية المبكرة. ولما تزل الفرس في عنفوان قوتها، ومع ذلك تراءى (العبيد المنتاز) كأن الفرس تسحب الفدان وناصر معا، لتباطوءها في المشي واستدارتها الوئيدة عند نهاية الخط، حتى تطامنت الزرازير فراحت تلتقط الحب مبعدة اذرع عن الفدان، فهتف عبيد:

- مشي فرسك اليوم مشي الخنفسانه بالصوف!

لم يشعر ناصر بأية عاطفة نحوه، وفكر: يريد تمضية بعض الوقت في ثرثرة لا معنى لها وويل الشجي من الخلي. رد تحيته بصوت واهن يتناسب تماما مع سير الفرس وحركة الفدان. سأله عبيد ان يكف عن الحراثة ويصغي اليه. سحب (مجنب) الفرس ثم اتكأ على (رجال) الفدان، وتعابير وجهه تقول: اوجز وانصرف واتركني لهمومي. بيد ان عبيدا اردف طلبه بالقول:

- حط عليجتها براسها سالفتنا طويله.

وشرع عبيد بحديثه المعد، انطلق من تعميمات لا تفصح عما يريد، بدت وكأنها لتمرين الحبال الصوتية. اقترب من غايته بحذر، شأن من يجرب قذيفة يدوية. فتح صمام النابض. وضع الفتيل. تمهل قليلا ليتفرس وجه ناصر. القى القذيفة:

لقد عرفت كل شيء عن علاقتك بحسنة. عتبي عليك لاخفاء السر عني.

الم اكن صديقك الحميم؟! ما مضى فات. نحن اولاد اليوم، وانه ليحزنني اقدام سعدون على حرمانك منها. لا ازعم المقدرة على مساعدتك في الكثير. لكنني قادر على تيسير مقابلتك لحسنة. دهش ناصر لانكشاف السر. اوجس خيفة وساءل نفسه: اتراهم يعدون لي مصيدة. اوكلوا طرف الخيط لك يا عبيد؟ لم تكن بيننا عداوة من قبل. لاحظ عبيد تردد صاحبه وطغيان شكوكه فأوضح له: قد لا تعلم ان بيني وبين صالحة علاقة حب متينة، وان صالحة صديقة لحسنة، وهي التي اعترفت بما بينكما من ود وعهد، وطلبت لقياك للتحرر من ذلك العهد.. واعترف صراحة بأني اعرض قيامي بالمهمة وليس سوى مأمور من صالحة. فقد وضعت علاقتي بها على كف عفريت ان لم انفذ رغبتها، بقصد التخفيف من مصيبة صديقتها فهل بعد هذا تراودك الشكوك فيما اقول؟

تساءل ناصر في سره: ما الذي دعاها لسلوك هذا السبيل الملتوي؟ لابد ان فكرة الهرب قد اختمرت في ذهنها ولبئس ما تفكر به -. اعترف لصديقه بعظيم فضله وأجزل الشكر له. غالب شعورا بأحتقار عبيد لم يعين مبعثه. ساءل نفسه مرة اخرى: والا فأي شيء تبغي بعد ان وسعت الدائرة وسلمت اطراف السر لايد غريبة؟

حث فرسه على المشي. نثر بذور الشعير بكثافة لتحتل مساحة اقل، متعجلا الرجوع الى القرية: واتكلف الظهور بمزاج طيب امام والدتي لافلت من طوق اسئلتها وتعازيها (هسه اشوف لك مره لكطه. بنيه حلوه ومستوره) ولابد من تدبير جواب اذا ما سألتني حسنة (يا اللّه اشسويت سولك چاره) وهل سيطول الانتظار؟ اسمعي. لم توصد الابواب بعد.. هل

اوصدت حقا؟ اي شيء يدور في خلدك يا ابي. يا حلال المشاكل اين وصل بك التفكير؟، (يا بعد حصان ابوي.. مرة الفلاح محصنه) هل فرحت لانك تخلصت؟ ما الذي يحول بينك وبين الهبوب يا عاصفة ويطير الرماد ويتكشف جمر العداوات بين العشيرتين. اليس من اجل كلب ضرب بحجارة اقتتل المنازلة والفهود وبلغت الضحايا بين قتيل وجريح ثلاثين!؟ اليس من الممكن حدوث شيءما بين العشيرتين؟ اليس هو صلال الذي تحالف مع ابن طرفه، كيف نسيت يا سعدون يا سليت؟ يا عديم الوفاء؟ يقولون الايام حبلى. يا حبلى متى المخاض؟، ومتى يحدث ما لم يكن بالحسبان؟، ها هو عبيد المنتاز يسعى بقدميه يعرض دخولي الحوش الذي يحرسه. فمتى يسعى سعدون بقدمه طالبا التكفير عن خطيئته. يا حبلى متى المخاض؟ يا ثور متى تداعب قرنيك؟، هل لا لذعتك حشرة؟ لم توصد ابواب الامل كلية، وتحت الارض ثور قد يعنفص في اية لحظة!!.

* * *

اتخذ مكانه عصرا في ربعة السيد محمد ابو شرارة، فيما يلي الباب، حمل السيد دلة القهوة بنفسه، سقاه فنجانين. كان يخالس سعدونا النظر: سامرغ وجهك بالوحل. الليلة موعدي معها مبعدة اذرع من انفك الكسيف وحارس بيتك يحرسني لانام معها. نضحت من شفته ابتسامة حين خاطب احدهم سعدونا (يا طويل العمر): بوسعي ان اقصر عمرك. اجعلك تتمنى قصر العمر. انا الثور الذي يحمل ارضك لو شئت (لعنفصت) وأحدثت الزلزال وطبعت وجهك بالعار الابدي (بت سعدون نهبت. نهبت بت سعدون. سعدون بته نهبت)، يا عديم الوفاء ليس يعنيني امرك. لو كان الزلزال لا يهدم الا كرامتك لفعلتها. تحاشى نظرات عبيد المتسلطة. لم يستجب

لابتسامته. تفرق اهل القرية. كل الى بيته، يتناولون طعام العشاء، يصلون فريضتي المغرب والعشاء بلا فاصل. ويتقاطرون ثانية على مضيف الشيوخ لتبديد ساعة او ساعتين من الليل. لم يعد حسين يؤم المضيف ليلا، اكتفى بـ (تسيارة) الصبح، متحاشيا النظر الى سعدون، بله الحديث معه. وانقطع خلف هو الآخر عن تسيارة الليل، ففقد الديوان طابع السمر الذي كان يضيفه وجود حسين، منشدا الشعر حاكيا بعض الاساطير. مازحا بود مع خلف وغافل. احتل بعض النهازين مكان الصدارة في الديوان، يتسابقون الى التزلف وتملق سعدون مكثرين من المديح الذي يشبع غروره مرددين كل ما هو تافه وبذئ، وعلى كثرتهم، سرعان ما تثاءب سعدون وانفرط عقد الديوان. وتمدد فالح بن سعدون على فراشه في كوسر المضيف، فقام عبيد المنتاز بجولته حول المضيف والحوش، متنكبا بندقيته. التقى، حسب الموعد، عند ركن الحوش الغربي بناصر بن حسين. عاد ثانية الى المضيف وجد فالحا يشخر. قدر ان سعدونا يغط الآن في نوم عميق. جلس القرفصاء ودقق النظر في كل الاتجاهات ولما استوثق من خلو الطرقات والفراغ المحيط بالحوش والمضيف. اشار الى صاحبه وسارا بحذر. تنحنح بصوت جهوري قرب الباب. سمعا، بعد ثوان. مزلاج الباب يرحب بالزائر المنتظر. تلفت قبل ان يدفع الباب زيادة في الحيطة. انفتح الباب فمرق ناصر على عجل اغلقت الباب حسنة بهدوء، تاركة المزلاج على حاله. ظللته بعباءتها وسارا الى كوخ المطبخ كان يجاهد لاخفاء رعشة المت به إثر نسمة خريفية باردة. التصق بها وهو يرفع ذراعها فوق كتفه احس صلابة النهدين. لوى عنقها ليستقر رأسها فوق صدره. انحنى يرشف الرحيق من شفتيها: لم

اعرف هذا من قبل الا على يد الراحل العظيم. (ابو الغمسي) مصة ارياكج لعيش ابها سنه.. عاوده الدفء حررت شفتيها بصعوبة لتهمس:

- بعد ما ظل أمل سويلنا چاره.

اختزل كل العبارات والاحاديث التي اعد رؤوس اقلامها بلفظ واحد (انشوف) واطبق شفتيه على شفتيها، كما لو ان غرضه الحيلولة بينها وبين الكلام. تذكر عبيد المنتاز وقد طالت الخلوة: لاينبغي ان تطول اكثر.. اسمعي ان فكري لن يكف لحظة واحدة عن التفكير بمخرج.

*　　*　　*

خمن حسين ان النصف الاكثر من الليل، قد مضى -ساعة تسلل ناصر الى الربعه فساءل نفسه: اين تراه يمضي هذا الوقت؟ هذا امر غير ممكن. الثعلب لا يستطيع تسور الحوش. يا كهلا بدأ يخرف تدبر امرك. بعض الخطايا لا ينفع معها الاستغفار ولا تزيلها الكفاره. شرع بذكاء ينسج مشروعه. وقد استعان بخلف واولاد صگر، اعطى كلا منهم مغزلا، دون الافصاح عن ما هية النسيج. صيرهم على استعداد لتنفيذ الفكرة لحظة نضوجها

*　　*　　*

بادر حسين يسأل سعدونا في ديوان الصبح: هل بوسع اهل البترا ان يستغنوا عن ماء المضخه ويعتمدوا السيح لري ارضهم؟

استشاط سعدون غضبا، ورد بعصبية، مبعثها الخوف من نمو هذه الفكرة في اذهان الفلاحين:

- شنهي هيه؟ لعب زعاطيط! لعبنا لعبنا بطّلنا بطّلنا، عيب عليكم

استحوا!

اجابه حسين بسخرية لاذعة:

- چنها اتريد ارنب اخذ ارنب، اتريد غزال اخذ ارنب.

ايقن سعدون ان صاحبه سيرد على كل كلمة قاسية بأقسى منها، غادر المضيف حانقا مرددا:

- موش عرب ناموس. عرب دنبوس.

بعد قليل نهض حسين يتمتم بهوسة (الماگدرها ايغص بيها) واتخذ طريقه مباشرة الى بيت خلف واولاد صگر.

تهامس اهل القرية: (حسين وخلف واولاد صگر طيحوا بيوتهم ايريدون ايشيلون)، وهرع الرجال والنساء وتجمعوا حول البيوت، ثم شرعوا يساعدون في ترتيب الامتعة ولف البيوت وتحميلها على الدواب، خيم على القرية جو عاطفي. بكت النساء، ثم الرجال. لم يحتمل حسين مشهد الوداع. نهر (خلف) بود:

- خايب انته اشمالك بغير گلب.. چا احنا رايحين لجزيرة الواق واق؟ كلها كطفة محچال.. نازلين بصفحة البترا من شرگ.

استبشر سعدون برحيل حسين وخلف فقد كانا سببا في كثير من المنغصات. كلما طاب له ان يتحدث عن الماضي، بشيء من المبالغة، تصدى له واحد منهما يصحح الرواية ويكذب بعض الاحداث المزعومة، وكانا يصران على مخاطبته بالاسم المجرد دون دعوات بطول العمر ويتجنبان الفاظ (محفوظ وعونك. وطويل العمر) فكانا اشبه بنصب تذكاري يشده الى الماضي الذي يريد قطع الصلة به، او تصويره على نحو آخر، وفكر

سعدون: اما مسألة الخطوبة فلا اظنه يفكر بها. ان هي الا مزحة طاح بها لساني في ساعة من ساعات السمر ايام زمان وهو ليس غبيا الى هذا الحد فيتجاهل تحول الاحوال وعدم صلاحية ناصر لحسنة.

* * *

رجع ناصر الى القرية يسوق ثلاثة ثيران، بعد افراغ حمولتها في الدار الجديدة، كانت الشمس على وشك المغيب، لم يعترض ابوه على مبيته في القرية، مطمئنا نفسه: فليمض ليلته هناك. ولتكن الليلة الاخيرة يقضيها مع اصحابه عبيد المنتاز واولاد الخضارة يهونون عليه مصابه، ولعله يتنسم اخبارها ومن يدريني فقد يلمحها فما زال ابليس في خدمة العشاق. لكنها لن تكون الليلة الخطرة. على كل حال. المهم انني ابعدت الزيت عن النار. وبدا رحيلي مقبولا عند الناس فقد شهد الديوان كله شجاري مع سعدون بسبب مياه المضخة (واليدري يدري والمايدري كضبة عدس).

اعترف ناصر لنفسه، انه يهلوس حين ضرب الثور وخاطبه بصوت مسموع:

– هم صرت مثل ثور الگاع ايحرج راسه بالسنه مره. الحگ ربعك. انعل ابوك لابو كل ثور ما ايحرج راسه.

ثم قال لنفسه:

– بدأت اخطرف. اي ثور هذا الذي أعقد الآمال على قرنه..؟

(حسبتك بجرن الثور)، قيلت عن الامر المستحيل وها ان قضيتي غدت في قرن الثور. تذكر قول ابيه: (اسمع يا خلف هاي الوادم مثل الثيران الثلاثة) احطن بالاسد فاستشعر الخطر. استعمل عقله. طلب التشاور مع

الثيران على انفراد. اخذ الاحمر فضربه، ضربة اسد. وعاد للادبس وقال لنختلي بعض الوقت نبحث المشكل العويص.. وضربة اسد.. وساعتها قال الابيض. لقد مت مذ مات زميلي الاحمر. وكان علي ان ادرك لقد مت مذ نصبت المضخة. بدأت تهلوس ياثور، بدات تهلوس يا ثور الارض. اي شيء كان بمقدورك فعله؟ حتى الآن بوسعي ان افعل واحدث الزلزال وامرغ وجوههم بالوحل وماذا عن وجه ابيك وحتى وجه خلف؟ هذه مصيبتي ياثور يا ثلاثة ثيران قضى عليهم الاسد حين فرقهم. والى اي نقطة بلغ تفكيرك الذي وعدتها بأنه لن يكف لحظة. هل الرحيل الى طرف البترا الشرقي آخر ما بلغه التفكير؟ لم يبق عند الثور فضلة قوة تدفعك الى ابعد من هورة البترا (بت سعدون نهبت. سعدون بته نهبت. نهبت بت سعدون). لكن البئر مشترك ولن يتسمم سعدون وحده. لا تلقى السم في بئر العشيرة. ما اعظم الاسد حين جمع القوة والتفكير وقضى على الثيران – اتحب الاسد يا ثور! عن اي ثور واي اسد تتحدث يا مشتت الفكر؟ والسفينة تحمل اهلك كذلك وخرقها لا يغرق سعدون وحده.

* * *

رفعت اعمدة البيوت فأنتصب عند نهاية منحدر التل الذي يفصل هورة البترا عن ديمة خلف. كان بيت حسين الى الشمال وبيت اولاد صكر الى الجنوب وفي الوسط بيت خلف، الذي اتخذوه مجمعا للسمر. لاحظ حسين آثار الاغتراب على وجوه الجميع. كان خلف اكثرهم تأثرا، احس وكأنه غرس اقتلع من منبته او كسمكة ابعدت عن الماء، وصار يحاور نفسه: يا قريتنا الحبيبه ما احلى ضجيجك على الرغم من مساوئ سعدون وتحوله

من حال الى حال، وعلى الرغم من تكاثر المنافقين والمتاجرين بالاشاعات والفضائح، لم يسبق لي الابتعاد عن القرية، وعلى اية حال فليست سوى شيئا رمزيا لايحاط بتحديد. والا فالقرية بالنسبة لي: حسين واولاد صگر ومن قبل سعدون. اما غافل فلا يتذكره المرء الا حين يخاطبه.

اخذ حسين على نفسه تبديد الوحشة، فكان يتكلم بصوت عال ويوزع الضحكات بين البيوت. وراح يقرأ منتخبات من شعر ثورة العشرين، متصنعا الحماس ليخرج خلفا من شرنقة الخمول الذي بدا عليه. ادرك ان استجابته كانت محدودة لهذا اللون من الشعر. تذكر ولعه بشعر (اشجيل ومطعوج) فأختار مطلعا يتناوبه الشاعران ينظمان عليه التنابز والتفاخر بعشيرتيهما:

كومي هلهلي يا ام چف المحنا
واجدم لچ صبايا وين المچنّا

التفت خلف صوب امرأته، وكانت تجلس في كوسر البيت، ولم يوضع الستار القاطع بعد، وردد المقطع مبتسما يا ام چف المحنا –وكأنه يدعوها للمشاركة –استبشر حسين بأنطلاقته وانشد لمطعوج:

اودي ست روايا امصخمات وسود لعند اجوادنا الغادي وابن هدهود
ينثر فوكك الازركك كام ابن عبود مامش يوم لنزوله يصبحنه

اهتز خلف حماسا، ثم ضحك وقرأ مقطعا من البيت على هذا النحو:

– لعند اجوادنا الغادي وابو البينه!

ثم قرأ حسين رد اشجيل على خصمه:

ننثر فوكك الازركك موش متعذرين وصابحكم تفكنا مثل ردي البين

طردنا كم على اضحيّه مكد يومين وظل مطروحكم نسوان شالنهّ

واتى حسين على كل ما يحفظ للشاعرين، فرق مزاج خلف واستطاب الجلسة. قال وهو يسحب نفسا من لفيفة تبغه:

– كلها اتهون الا الشاوردي!

ثم اوضح: ان كل شيء في دارنا الجديدة سيكون على ما يرام، ولكن شرب القهوة ومجلسها لا يعوض. اجابه حسين على الفور:

– محسوبه. محسوبه فكرت بالسالفه وعن جريب اشتري الكم دله وحب ونشرب ونسولف، وما دام گهوه وتتن كل الامور اتهون!

وحين استراح حسين الى وسادته تذكر ولده بأشفاق وفكر: سأجبر خاطره وافعل كل ما هو ممكن لتخفيف صدمته. صحيح انها صغيرة السن ولكن ما اكثر الفتيات في سنها بل اقل منها تزوجن وانجبن وانها جميلة ومؤدبة وكفاها فخرا انها بنت البطل صگر ولها اخوة طيبون. وفي ليلة زفاف حسنة بنت سعدون الى ابن صلال تزف نعنانة بنت صگر الى ناصر. ولا يخفى على سعدون ما في هذا الزواج من معنى.

ايقظ حسين زوجته واسر لها بما دار في خلده. كانت تفكر هي الاخرى بخطبة ورده بنت اخيها لكن ما يعرضه زوجها يحمل في ثناياه كل اسباب الاقناع فحاورت نفسها بسرور: لقد بدأت تتعلم الحياكة على يدي وتتقدم

في هذا الفن بسرعة ملفتة للنظر وهي جميلة ومؤدبة وصغر سنها فضيلة وليس عيبا ولن يضيع تعبي سدى كما ضاع مع حسنة.

* * *

لاحظ عبيد المنتاز اثر الحزن والكآبة على وجه ناصر. حاول التسرية عنه ببضع كلمات. سرعان ما ادرك عقم مفعولها وقال لنفسه: ما قيمة ان تعزي المفجوع بعزيز وتعظه بالقول (كلنا لها لدرب) هل تخفف هذه الكلمات وزن ذرة من حزنه؟ ثم انعطف بالحديث الى جوهره: اسمع. انت محظوظ لدرجة احسدك عليها تهيأت كل اسباب الاستمتاع بليلة الوداع. ابوها مدعو عند صلال يبيت هناك وكذلك ولده فالح. واختها ذهبت لزيارة خالتها والليلة ليلة الوداع وهي منفردة بحجرتها سأخبر صالحة بوجودك لتبلغها ولا اظنك تجهل قول الشاعر (خذ حبة التوديع حدر الكلاده..) استشعر لذعة غيرة من كلمات عبيد تخيله يرفع القلادة ليعين مكان القبلة. متمليا نحرها ود لو يزجره: كف عن العبث بنحرها

ما لبث ان زجر نفسه ساخرا: انها ليست سوى كلمات مبعثها الاشفاق والمشاركة الوجدانية. وتهب مذعورا من فرط غيرة لانه يذكرك بأن قبلة الوداع تحت القلادة.. يا ثورا يحمل العگال بدل الارض ما الذي تفعله حين تمسي بين يدي الكلب الاجرب ابن صلال يعبث بمفاتنها وما الذي انت صانعه وهو يعريها؟

انتفض لهذا الخاطر الوقح وحرك رأسه نفيا فتساءل عبيد مدهوشا كيف يرفض صاحبه لقاء الوداع؟ تنبه ناصر الى نفسه وصحح لصديقه:

– لا هيچ ما عنيت شي بهزة راسي!

غادرتها صالحة، فأجتهدت لجمع شتات فكرها وجدت نفسها متعلقة بلوح سفينة غارقة لا تدري ايان يستقر، وتساءلت: ولماذا اكون جسرا يعبر عليه لمغنم من صلال او كبش فداء الصلح؟ لئن تعمد قلبي ووضعه في اساس بناء علاقته بصلال فلأتعمد تمريغ جبهته بوحل العار. وهكذا لا حول ولا قوة لي فمن ارادة ابي الى ارادة ناصر قد يرفض وقد يرضى وانت موضع المساومة يا تعسة.. ذاك حريص على مغنم وهذا حريص على سمعة.. يا ايها القلب المجنون سلمتك قياده، فلأنتظر ما هو صانعه. لكل قدره، مستسلم لما يصنع.. وقدري انت يا ناصر. ثم استدركت وقالت لنفسها مشجعة: وعلى اية حال لابد لي من عمل شيء...

* * *

وقف ناصر ومعه عبيد المنتاز جوار الباب خبط عليه برفق، ففتح على عجل. لم تظلله بعباءتها، التصق بها وهما في الطريق الى حجرتها تنسم عطرا ساحرا لم يستنشقه من قبل. دخل حجرتها اول مرة، لم يتبين موطئ قدمه، اول وهلة. اقتادته الى فراش وثير. ارتميا متعانقين، ولما تحرك كفه فوق خصرها خيل اليه ان شيئا من نسيج الثوب، الناعم جدا، يعلق بأصابعه. عرف لحظتئذ كم هي خشنة اصابعه. مرر ظاهر كفه على الثوب معجبا بنعومته، حسبته يتساءل بصمت. اجابت بصوت متهدج:

– هذا نيشان العرس.. جابوه اليوم!

اطل الخاطر الوقح: ستكون بين يدي الكلب الاجرب ابن صلال يعبث بمفاتنها.. وقد يعريها بأي حق يعريها انتفض كالمصعوق. انقض عليها كالصقر ينشب مخالبه في الحبارى. ادركت انها ليست لحظات تساؤل

واجوبة. ارجأت السؤال عن القرار الحاسم. خفت الظلمة امام ناظريه. تبين ملامح وجهها تراءى له ان بريقا يشع في عينيها شاركته جهد الضم والعناق بقدر مساو لما يبذل. انسابت اصابعه فوق ثوبها (الچيناوي) فوشوش الثوب تحت كفه الخشنة. شعر كأن شخصا ما يعيره: كف فلاح خشنة لا تنزلق فوق هذا النسيج الناعم. ان مخمله يعلق بأصابعك.. خلق هذا النسيج والجسد البض الذي تحته لاصابع المترفين. اطل الخاطر الوقح: وستكون بين يدي الكلب الاجرب ابن صلال.. وتعريها تعريها يا كلب لن ادعك تفعل هذا انتفض متوحشا امسك ذيل الثوب وسحبه بعنف. انزلق الثوب على جسمها الممتلئ. لم يترك لها فرصة للمقاومة: انا الذي اعريها ايها الكلب الاجرب. وها هي بين يدي. تبدى جسمها بضا رغم الظلمة. تحررت من خجل وخوف على نحو مفاجئ كما تحررت من ثوبها: وساقطف الثمر الناضج ايها الكلب الاجرب. الثمر الشهي ولك الفضلة. نبت لهما جناحان، فحلقا الى حيث الوان الطيف الشمسي وفي بحر من البخور تتحرك الاجنحة من تلقاء نفسها ليس ثمة غبار ولا عواء وعاظ. ارتعشت مثل سمكة يمسكها الصياد وسط الماء. كان يزفر انفاسه من منخريه كحصان اجهده العدو. ندت آهة. همهمت كالمستغيث في نومه. تخدرا بدبيب لذيذ. احسا وكأن العظام في جسديهما تستحيل الى عجينه لدنة. اختلطت الزوايا بالخطوط وتلاشت الالوان. ثم تحولت الظلمة الى الوان ثوبها الچيناوي. اطبقت جفنيها على شريحة الوان زاهية لا عد لها وساءلت نفسها: أهذا الذي تحسب العذراء له الف حساب؟ اهي اللحظة التي يحطنها بما يشبه قرون العفاريت فتمتلئ قلوب العذارى رعبا من ذلك

المجهول؟ ان عضة البرغوث اكثر ايلاما يا سخيفات. كان ينبغي تذوق هذا في (كلة) العرس والزغاريد تطوف حول البيت.. والبنادق تلعلع في الفضاء، وعلى ضوء فانوس العرس اتملى وجهك بلا وجل. هكذا ارادوها انفك راغم بالتراب يا من أردت المتاجرة بي.

احتضنته بكل قوتها وتوسدت ذراعه. سمع ناصر خبطا رقيقا على الباب. وتناهى صوت عبيد قرب الباب (احح احح) تذكر الاشارة بينهما ساعة يستجد جديد جمع ثيابه. لبس على عجل. ولما تزل مستلقية على فراشها ألقى نظرة عجلى قبل مغادرته الحجرة.

كان جسمها في الظلمة يذكره بالحليب وقد امتلأ به قدره. مرة سأل امه: ولكن لماذا لاتنعكس النجوم في قدر الحليب كما تنعكس على الماء؟ طالعه خيط من نور الفجر: احقا ما ارى؟ انقضى الليل بهذه السرعة؟ فطن الى صياح الديكة وفي مثل هذا الوقت يردد أبوه:

– ياربي حسن العاقبة. الفى صديقه عند الباب. عاجله بلازمة (خلف الدواح): بلابوش دنيا

تنشق ملء رئتيه، نسمة الصباح الباردة وردد في سره باخلاص: ياربي حسن العاقبة. ما انريد غير حسن العاقبة.

* * *

اجاب سويلم الصگر نيابة عن اخويه:

– ما يغلا عليك شي يا ابو ناصر.. التريده ايصير..

ثم استدرك يبرر تحفظاته: في هذا الموسم كما ترى زرعنا ضعف مساحة العام الاول. وليس لنا مساعد على جمع الزرع سوى نعناعة،

والفلاح لا يمكنه الاستغناء عن مشاركة المرأة له في الحقل. وانت تعلم بحال امنا المريضة. لذا نقترح تأجيل الزواج الى ما بعد الحصاد.

قطع عليه حسين طريق المناقشة حين قرر: لابد من زفاف نعناعة قبل الحصاد، وسوف نعفيها من كل عمل طيلة ايام الحصاد لتجمع زرعكم. لم يعد بوسع سويلم الاعتراض. لكنه تساءل وكأنه يفكر بصوت مسموع:

- چا شنهو الداعي للعجله؟

- آنه اعرف شي وانتم تعرفون شي.

وهمست ام ناصر لولدها:

- ابوك ايگول على عناد سعدون بليلة اللي تنزف حسنة يصير عرس ناصر!

استبد به التردد لبعض الوقت. وجد في معاندة سعدون بعض السلوى.

لكن صورة حسنة تطل في كل لحظة، معاتبة مستعطفة، فيسألها: - ولكن ما الذي أستطيع فعله يا حسنة! والحل الذي تقترحينه فوق طاقتي. لن اكون سببا في تلويث سمعة العشيرة. بـ (النهيبه).. وماذا لو رفضت الزواج بنعناعة؟ وقد شرع صلال بأجراءات الزواج؟ ومع ذلك لن اقطع خيط الرجاء.. حتى بعد الزواج.. وما الذي اجنيه من مخالفة ابي؟ وما الذي تفيدينه من تأجيل زواجي؟ دقق النظر في وجه نعناعة، صبيحة اليوم التالي، وتملى قامتها بعين الناقد المتفحص. وجدها فتاة وسيمة، لايعيبها سوى صغر سنها افضى لامه بهذه الملاحظة. فردت عليه باسمة:

- لا تهتم. البنيه بحضن الرجال ايصير يومها بشهر.

وقال خلف حين ابلغ الخبر:

- يا نعمتك يا ربي، دهينتنا على دبيستنا!

شرع حسين يهيء مستلزمات العرس، وقد اعفاه اولاد صگر من مهر نعناعة، معتبرين الزواج (گصه بگصه) فمثلما يتكلفون تجهيز شقيقتهم، سيقوم بتجهيز ابنته.

بعثر حسين ثمن الثور والبقرة، حتى عاتبه خلف:

- گمت تصرف بغير وجع گلب.. چنّك ما ضام للصبيان اچعاب!

فلقد اشترى رزا من النوع الجيد، وكانت الكمية اكثر مما يحتاجه عشاء ليلة الزفة. وملأ خرجا كبيرا بالخلال الممتاز. انفق على سكاير المزبن مبلغا لا يستهان به. هذا الى جانب بعض الحاجيات التي تعتبر في عداد الكماليات، مثل اللمبات النفطية وبعض الاواني المعدنية، ولكل حاجة ثمنها، فحتى الدنابك الثلاثة دفع عنها نقودا معدودة، وكان يصدر في هذا عن شعور بمعاندة سعدون: اذا ما حضر ليلة الزفة سيجذب حسرة حقيقية، اعرفه طول عمره أسير المظاهر. ما رأى قطعة ملابس عنده غيره الا تمناها، وما اعجب بمنطق انسان الا وتحسر، ليته يملك مثل منطقه. يتميز غيضا اذا سمع احدا يثني على احد. لكن ماهو اهم من ذلك ان يتعرى صلال على حقيقته امام عينيه ويعرف ماذا يضمر وراء هذا القرب وساعتها يعض اصابع الندم -ولات ساعة مندم -ويقول ياليتني زوجت حسنة لابن حسين واحتفظت بتلك العلاقة الطاهرة.

ويوم بدأت مظاهر الفرح والتطريب في بيت صلال، اوحى حسين لحمزه بن خلف وولده نعمة، الذي تعارفوا على تسميته مازحين (ملا نعمه) بأن يباشرا قرع الدنابك ويستعينان بأصدقائهما في القرية.

كان ذلك مساء الاحد، وموعد الزفة مساء الخميس. ومنذ صباح الثلاثاء احتجبت نعناعة واعفيت من اشغال البيت.

استشار حسين خلفا حول قضية (المومن) الذي يعقد القران، وقد تأكد لهما ذهاب ملا محسن الى عرس ابن صلال. فأقترح خلف ان يجري العقد (ملا نعمة) بعد ان تأكد من اتقانه لصيغة العقد. رفض حسين هذا العرض، مبررا رفضه بالسبب التالي: سيقولون بخل حسين (بربية) المومن وحمل ولده على عقد قران اخيه.. لن افعلها ابدا (الشايل الكاره ما يضهده العود) وفضل استدعاء علي بن ملا محسن.

تطوع خلف للذهاب بنفسه الى قرية سعدون ليدعوه مع ابناء القرية على العشاء، وليحضر ابن ملا محسن. لعقد القران. اعرب حسين عن شكه بأستجابة سعدون للدعوة. فأنكر خلف سوء الظن الزائد عن اللزوم وقال كالمعاتب:

– ابن مهلهل ذهب تيزاب. اشلون ما راد ايصير ما يزنجر!

وحين رجع من القرية قال لحسين بأستسلام:

– ظنك بمچانه.. صاحبنا يشتل فوگ فوگ. كال اودي فالح بمچاني آنه مالي خلگك بلابوش دنيا

وكرر خلف لفظ (خلگ) بصيغ متعددة سخرا من سعدون وانكارا لتعاليه على اصدقائه وابناء عمومته:

– مالي خولگ.. مالي خالگ.. مالي خليگ بلابوش خلگ!

* * *

شيد حسين صريفة منفردة للعروس، رفع الستار القاطع بين الربعة

والقسم المخصص للعائلة، وجعل البيت كله مضيفا، ليستقبل المدعوين دون مضايقة. وكان على يقين من ان احدا من اهل القرية لن يذهب الى عرس ابن صلال، فذهاب اقرباء العروس وابناء عشيرتها الى حفل زفاف العريس المنتسب لعشيرة اخرى مدعاة للخجل ولا يقدم عليه الا الاطفال واولئك الذين لا يعيرون العرف أدنى اهتمام.

ومع غروب الشمس زفت نعناعة الى صريفتها وارتفعت الهلاهل تتخللها اطلاقات نارية وقرعت الدنابك، فأنطلق خلف على سجيته، امسك عصاه من وسطها واستدار وسط الديوان. حاول ان يحرك جذعه على ايقاع الدنابك ولهوج صائحا:

- حسين.. حسين. ثواب لبوك علمني بهذا البيت.. اشلون اشلون من تطب للسوگك صبحه؟

انشده حسين وفي صوته رنة مرح:

من تطب للسوگك صبحه   صابت الدلال فرحه

جيت اعاملها الوكحه   غطت الروبه بطبكها

داده خيعونه الشبگها

وراح خلف يركل الارض بقدم واحدة، مثيرا للغبار، حتى تشكلت منه سحابة في سماء البيت. وقد امال جذعه جانبا وهو يردد بانفعال:

- داده خيعونه الشبگها   داده خيعونه الشبگها

فتحرر الشباب من بقايا حرجهم. وقرعت الدنابك وغنى المغنون فأعجب خلف بغناء احدهم وصاح من طرب:

- ايه بويه ايه.. ولكم هذا موش غنى.. هذا اتفلش! وروح مهلهل اتفلش!

كان حسين يتطاول مزهـوا بحفل زفاف ابنه، فكل شيء قد أعد بصورة ترفع الرأس فخارا: الخـروف الذي اقتاده خلف عنـوة من شياه اخيه جودة (ابـو گصتين) والعـجل سمين ضخم بمـا فيه الكفـاية، والـرز كثيـر وهو من النوع الفاخر، ويجلس ناصر وسط الديوان كالـصقر على مرقاه، مخضوب الكفين، امـامه خنجر العرس، لفـت قبضته بمسبحة حسينية، والقهوة تدور بلا انقطـاع وسكاير المزبن -التي اسماهـا جوده اصابع العروس- توزع بسخـاء: انه حفل رائع لا ينقصه سوى وجـود سعدون ليرى بـأم عينيه هذه الأبهة.

وصـاح المصـوت، بعد العشـاء: شوبـاش شـوبـاش فتـوالى المدعـوون لدفـع العطاء. وكان اكبر مبلغ دفـع من يد فالح بن سعدون.

تـولى خلف اسـتدعاء (الملاّ) الـصغير، علـي بن ملا محسن، الـى صريفة العروس، ليأخذ اقـرارها بقبول ناصر زوجا لـها، وتـوكيله نيابة عنها ليجري العقد مع العريس. شرع الملا الصغير يتلو صيغـة العقد، وكرر استجوابها ثلاثـا -وذلك امـر لازم فـالفتـاة لا تجيب بنـعم عند اول سـوآل- وكلمـا تمنعت كان ذلك أدعى لتعلق الـزوج بها في قادم الايام. أجابت بعد السوآل الثالث، بصوت تمازجه الرهبة ويثقله حياء عذري:

- نعم ونته وكيلي..

كرر الملا الصغير تلاوة الصيغة مجددا وسألها:

- ان قبلت قولي نعم انت وكيلي؟

اجابت:

- نعم ونته وكيلي.

وعاود التلاوة مرة اخرى بسبب من عدم تلفظها الاقرار باللغة الفصحى. فنفذ صبر خلف وقال له بنبرة حادة:

- عمي هيه شنهي؟ بيش تطلبها چا غير هالتگول نعم ونته وكيلي؟

رد الملا الصغير بحذلقه: ينبغي ان يكون اللفظ سليما فتقول ((نعم وانت وكيلي)) وليس ((نعم وانته وكيلي)).

وبعد جهد مضن نطقت على نحو مقارب لما يريد وغادرا صريفة العروس. انتظر الملا في كوسر البيت ريثما يعود خلف بالعريس..

تحنبل الملا الصغير مع ناصر، فأشترط تلفظ الكلمات بحركاتها وسكناتها، مصغيا الى مخارج الحروف، مصرا على سماع حرف (القاف) مجلجلا رنانا لا تمازجه خنة اوغنة من حرف (الغين) في لفظة (قبلت) فخرج خلف عن صبره وخاطب الملا الصغير بنفس قصير:

- عمي هيه شنهي؟ لا اتسويها جرجره.. البنيه راضيه والولد راضي، هالعجن شنهو لزومه؟ توتو.. قبلتوا بلابوش قبلتوا!!

تهيأ عدد من الشباب، كل يمسك (عگاله) بيده، محاولين ضرب العريس، لحظة قيامه، فأستبسل اثنان من اصدقائه، ودافعوا عنه بشهامة، حتى اوصلاه (الصريفة) سالما

فضج المكان بالضحك وصخب الشباب -لعلها المرة الاولى التي يزف بها عريس دون ان يوجع ظهره بضرب العگل.

انسحبت النساء من صريفة العروس، حالما دخل ناصر، وقبل ان يستقر في مجلسه رفع (البويمه) عن وجهها، فلاح له وضاء جميلا قبلها في

الجبين على استحياء وقال العبارة التقليدية:

- الگمرا جدامج والظلمه وراج.

تملى وجهها. كان ينضح انوثة وحياء. بدت في زينتها وثياب العرس اكبر مما هي. تذكر قولا شائعا (في ليلة العرس ويوم العيد تستعير الفتاة جمالا من سبعة جيران لتضيفه الى جمالها). ارتعشت خوفا حين داعبها. اشفق عليها وارجأ ما كان ينبغي انجازه، لمفاخرة الاقران، حين يواجههم بعد قليل. شملته موجة سرور وقال لنفسه: لك الحمد ياربي. انها صغيرة ولم تبلغ سن العشق والعبث بعد. والا فما يدريني أي كف عبثت بمفاتنها. اما انت ايها الكلب الاجرب فأنعم بالقشور الليلة. ولقد أتيت على اللباب وقطفت زهرة الشباب، لو علم طويل العمر بما بذلت من جهد لاحفظ له كرامته لقبل التراب تحت اقدامي: لو طاوعتها لكان اليوم يمضغ الهوان والمذلة. ما اجمل دعاءك يا ابي: ربي حسن العاقبة.

كانت ام العروس تدور حول الكوخ، وتخطر في الفناء المجاور مثل قطاة ضلت افراخها وهمس حمزة بأذن عبيد المنتاز حين لاحظ دوران ام العروس:

- صدگك لو گالوا: مثل ام العروس فارغه مشغوله!

وطال انتظار اصدقاء العريس، فاقترب عبيد من الصريفة وتنحنح (احح احح) تذكر ناصر انه سمع نحنحة من قبل على هذا النحو، في مناسبة غير عادية. هتف عبيد:

- بلابوش دنيا! سويتها اطواله الوادم اتريد تمشي. متعلم لما ايصايحونك!!

ادرك ناصر انه ليس حر التصرف في وقته، فالمدعوون لا يغادرون بيت العريس الا بعد خروجه من عش العرس واعلانه ما يدعو لفخر اهل العروسين على حد سواء. قرر ان يكذب كذبة بيضاء فرد على تساؤلات اصدقائه وهم يعانقونه:

- طيرّت الحمل!

ولما دخل الربعة واستقبله الحاضرون للتهنئة معانقين. سارع بعضهم الى التسلل خارج الربعة، وكان من بينهم حسين وخلف. عمد احد الشبان فأطفأ (اللمبة)، وكان ذلك ايذانا بضرب (العگل) دون تمييز. اختلط الصراخ بالضحك ولم ينج من الضرب الا اولئك الذين هربوا قبل ان يسود الظلام. اشعلت (اللمبة) ثانية ورجع حسين وخلف ومن اختبأ معهما، فطلب بعض الحاضرين ان يرقص حسين وخلف تعويضا عن نجاتهما من ضرب العگل.

قرعت الدنابك، تخاصر الكهلان، ولعبا چوبية، انضم اليهما عدد من الشباب، فلم يوفقوا لاجادة ذلك النوع القديم من الجوبية الذي يحسنه خلف وحسين.

أشار احدهم على ناصر ان يعود الى عروسه، وقد اصبح في حل من المدعوين، تفرقت النساء ثانية حالما دخل الصريفة بعد ان ودعن العروس وعريسها بحزمة متناغمة من الهلاهل.

خلع يشماغه وعكاله وعباءته وسترته. اخذ عروسه بين يديه ملاطفا. شرع يداعبها برفق عله يحررها من الخوف تذكر قولا: لقد نسيت اسم الشخص الذي قال ان ليلة العرس تاج يضعه الشاب على رأسه وانها ليلة

واحدة في العمر لن تتكرر ابدا حتى وان تعددت الزوجات وقال ذلك الشخص لقد نسيت اسمه تماما: ان ادق تفاصيل ليلة العرس حتى تلك الحركات التي تصدر عفوا تظل عالقة في الذهن كنقش على حجر، عصية ابدا على سلطان النسيان، وقال ذلك الشخص الذي نسيت اسمه. قال؟ لقد نسيت ما قال بهذا الصدد واحسبه قولا له اهمية خاصة. دعك منه..

اقتحمت عليه خلوته مع عروسه صورة حسنة: هل هي منسجمة معه وما الذي يفعله الكلب الاجرب الآن. هل استجابت لحركاته الكريهة؟ الكريهة؟ وهل رأيت حركاته، لاتخطرف ودع الثور، حذار ان يأخذك الثور بحكايته السخيفة. قرر شباب القرية ان لا يضيعوا فرصة للاستمتاع بهذه الليلة الربيعية المقمرة. فبدأو فصلا جديدا وفي هدأة الليل تعانقت اصوات الدنابك متناهية من بيت صلال حاول بعضهم ان يعرض بصلال لانه جاء ببدعة، فأستأجر كاولية لاقامة الفرح. حال حسين دون تشعب الحديث وقال:

– بويه مالنا ومال السلاطين.

وقف حمزه بن خلف خارج البيت ونده (الملا) الصغير، نهض علي بن ملا محسن مؤملا من وراء هذه الدعوة هدية خاصة من اهل العريس. فوجئ بثور ادبس وبقرة صفراء يمسكهما نعمه بن حسين. امره حمزه بلهجة جادة:

– شيخنا من فضلك اكطع مهر بت الحلال على هذا ابن الحموله!

بهت الملا الصغير. تصنع ضحكة فاترة، دارى بها خيبته، وقال يخاطب زميله السابق في الكتّاب:

- يمعوّد نعمه -عيب مناك الوادم!

عاجله حمزه بضربة عگال موجعة وامره قائلا:

- العباس كفيلك -اگطع عليك العگال كون ما تملچ الصفرا على الادبس!

لم تشفع له زمالة نعمة، ولا تودده لحمزة، وجد نفسه في النهاية مضطرا لاطلاق صيحة استغاثة. ادركه المدعوون وخلصوه.

وكان ذلك مسك ختام الحفل.

الفصل السابع

صاح سعدون، بلهجة تهديد، وكلامه موجه لكل الحاضرين:

- عرب دنبوس -موش عرب ناموس!

سحب نفسا من سكارته. ثم عاود التفكير ومحاورة نفسه، وكأنه يحرض نفسه على التمادي في مسلكه الجديد: (چنا وچنينا) كما يفكر ويتصرف خلف (ما چنك شفت حاكم انگريزي وگعدت وي قيمقام..) التقت عيناه عبر باب المضيف بحصانه المدلل (نجيمان) وكان يستدير حول مربطه. فأستبدت به الصورة، وقال يخاطب نفسه: كأنك هذا الحصان المربوط يدور حول (الخيّه) لا يبتعد عن مدى سلسلته شبرا واحدا وانت يا مغفل يا سعدون تتحرك وكأن العشيرة (خيّه) لا تبتعد عن اهتماماتها شبرا واحدا.. قال الخمس.. وقالت (الفصلية)، لا تريد ان تتحرك ابعد من هذا المدى. تتوهم ان الدنيا تنتظرك.. تستأذنك في حركتها ما هو الخمس وما هي حصتي من الفصلية؟ (الف عصفور ما تترس جدر). ولم تسأل نفسك: من نصب لك المضخه؟ ومن يعدك بتسجيل الارض ملكا صرفا؟ اجب يامغفل.. من نصب المضخه؟ اهم عشيرتك ام الانگليز؟ ومن يقدر على تسجيل الارض بأسمك ملكا صرفا؟

وفرحت بخمس السرقة ولا تدري ان الانگليز -الحكومه -لا يرضون بسلب مسافر على الطريق العام.. وتلجلجت امام معاون الشرطة ولكن جزا اللّه صلالا الف خير.. تمكن من تسوية القضية مع مأمور المركز. اما انت فلا تزال تدور حول (الخيّه).. غمرت المياه طريق السيارات الجديد بين الناصرية والكوت.. فأكتفيت بالعتاب: (اخوكم.. عيب.. لا تجيني حجاية ناگصه) ما هكذا يا مربوط.. تعاتبهم بكلمات رقيقة.. نسيت وضع ابهامك

تتعهد بسلامة الطريق من الغرق وصيانة القناطر من عبث العابثين.. واذا لم (تتشلع الخيّه) فقد يجئ المفتش الانكليزي بنفسه ويجد الطريق مغمورا بمياه المضخه فيقرر:

(مكينه ماكو.. مكينه فنش.. سعدون فنش.. مكينه ينشلع.. گاع ماكو سعدون فنش) وتعود ثانية تتمسح بأذيال العشيرة (رد تارس صمّه بخصيانه!) وتتلمض لخمس سرقة ولطعة من فصلية او فضلة من ضرائب الكوده.. و (خشمك اذنك) للّه درك يا صلال: (بدّل بدّل.. راوهم عين الحمرا هذوله موش عرب ناموس هذوله عرب دنبوس..)، رفع صوته يأمر عبيدا المنتاز.

– من عين باچر شغلك ماي المكينه. اتسويه رشن مضبوط، والعليهن كلهن، تحفظ الجادّه من الغريج لو طارت عليها نگطة ماي انت حگي.. اطلع بيك نار اللّه كلها احبسك، اخلي حديدك من..

ابتسم عبيد المنتاز واجاب:

– امرك امحفوظ.

* * *

بكر عبيد لتأدية عمله الجديد، كما ينبغي، وسار مع (المحموله) يراقبها بدقة.. فلمح على البعد، تحت اشعة الشمس، بريقا يخطف الابصار يقترب من طريق السيارات. اسرع ناحيته، ثم هرول، فأستقبله لسان الماء يزحف كالافعى. رأى صاحب (الرشن) منهمكا يجاهد بأقصى طاقته للسيطرة على الثغرة التي حدثت في المحموله. ركض عبيد نحوه. وجد الثغرة كبيرة وخطرة.. كان عرق الفلاح يتصبب بغزارة، فيختلط برذاذ الماء المتناثر من

لسان المسحاة. ركب عبيدا الخوف من عواقب الامور، وهو في اليوم الاول من وظيفته الجديدة، فأندفع معاتبا، ثم شاتما ولم يرد عليه الفلاح بشيء ولم يتوقف عن عمله. غضب عبيد من استهانة الفلاح به، واعراضه عنه. فأنطلقت الشتائم من فمه مثل رذاذ الماء الذي يرشق وجه الفلاح من لسان مسحاته. آثر الفلاح ان لا يضيع دقيقة من الوقت في عبث الكلام والجدل، فما لم تسند (شلة) الطين اختها، جرفتها المياه المتحدرة. لم يجد عبيد في الشتائم متنفسا عن غيظه.. تقدم نحو الفلاح خطوة، وبصق في وجهه..

كف الفلاح عن العمل. استقام في وقفته، مستندا على المسحاة. استحال اعياؤه الى غضب وحشي. اقتلع قدميه من الطين. وجه لسان مسحاته الى صدر عبيد.. ثم خطا نحوه مرتعدا من فرط انفعال. كان يطلق زفيرا عاليا من منخريه.. فأدرك عبيد دنو الخطر.. تراجع على عجل. اندفع الفلاح نحوه، يرعد بكلمات غير مفهومة. ميز عبيد من بينها عبارة واحدة:

(لاراحة ولا كرامه! عليمن خايف بعد..)

كان هديره ينذر بما وراءه. تحتم على عبيد ان يستعين ببندقيته. دفع اطلاقة من خزانها الى بيت النار، وصوبها ناحيته، متعمدا تخويفه دون قتله. ازت الرصاصة فوق رأس الفلاح.. فهجم كالثور المستثار، وكأن صوت الرصاصة كلمة عار جارحة، وسط الديوان، لا مناص من الرد عليها ارتعب عبيد من هجوم الفلاح الخاطف. قدر ان بينه وبين الموت الذي يكمن في لسان المسحاه، بضعة اشبار وبضع ثوان، فدفع الى بيت النار اطلاقة اخرى. دوت المرة دون ان تئز رصاصتها

صرخ الفلاح بصوت مرعب، سمعته القرية. واستقرت مسحاته بين

قدمي عبيد، بعد ان جرحت ساقه اليمنى. ركض اهل القرية.. وتحلق الخضارة حول ابنهم القتيل.. فيما شغل سعدون بن مهلهل بتضميد جراح عبيد.. واطلق فالح لفرسه العنان، بأمر والده، ليبلغ الشرطة بالحادث.

وصلت سيارة الشرطة قبل الظهر.. قام المفوض بمعاينة مكان الحادث..

اجرى تحقيقا سريعا، بعد خلوة قصيرة مع سعدون، ثم وضعت جثة القتيل فوق السيارة وأجلس القاتل، الجريح، بداخلها. تشبثت ام القتيل بالسيارة، دون وعي، فنهرها المفوض بخشونة:

– شكو گلبتوا الدنيا؟ قحط موت! عبد المحسن السعدون ريس وزاره انتحر من كيفه البارحه!!

*　　*　　*

عرف الخضارة ان جرح عبيد بسيط، وانه البادئ بالعدوان، فبعثوا من ينذر سعدونا في مضيفه: انهم يعتبرون الحادث على جانب كبير من الاهمية.. وسوف يرحلون الى حيث تقيم عشيرتهم، ومن هناك يثأرون. ويحسنون الاختيار.

استبد الخوف بسعدون من اشارتهم الى (حسن الاختيار). فأستدعى حسين وخلف لمشاورتهم في الامر. استقر الرأي، بعد المداولة، على ارسال السيد محمد ابو شراره الى عم القتيل ليأخذ (عطوه) لمدة شهر، يبحثون خلاله الامر..

رفض عم القتيل ان تكون (العطوه) شهرا، بل اقترحها اسبوعا وبعد يومين حضر رئيس عشيرة الخضاره ونزل ببيت عم القتيل.

كان سعدون ميالا لاجراء التسوية بأي ثمن، ولذلك تمسك رئيس عشيرة

الخضاره بمطلبه: ان تكون الدية امرأتين (فصل) واحدة لانهم جيران، والثانية لان القاتل تعمد القتيل في محل عمله.

اجتمع سعدون مع وجوه العشيرة.. تداولوا الامر.. رد على ملاحظات القائلين بأن الخضارة هم في عداد الدرجة الثانية من العشائر، ولا يصح تزويجهم من بناتنا:

- عمي خلصونا من هالسوالف الماچول ريعهن.. كل احنا اولاد حوا وآدم..

فهمس خلف بأذن حسين:

- خايف الجبان.. خايف على روحه.. صاير خيِّر.. كل احنا (اوناد!) حوا وآدم..

- لو يعرف الطلابه اتطيح بروسنا وحدنا چاشاوخها وسوالها بنايج وتخاريص! لكن هذا الحچي مال خايف، موش مال خيِّر.

اخيرا فوضوا السيد ابو شرارة ان يتبنى فكرة اعطاء فصلية واحدة، وهكذا كان. وشدّت الراية على فصلية، وتليت الفاتحة بعد تسمية صالحة بنت احميد ابو البينه -فصلية -.

زفت الى اخ القتيل بعد ثلاثة اشهر، دون ضجة او اي مظهر من مظاهر الفرح. وبلغ القرية نبأ الحكم على عبيد بأربعة عشر عاما مع الاشغال الشاقة.

* * *

وافق الفلاحون، عن طيب خاطر، على اعطاء (كفة الگهوچيه)) من كل بيدر لغافل -ابو عبيد -اشفاقا عليه بعد محنته بسجن ولده. وسكتوا

محرجين، عندما طلب فالح بن سعدون ان تؤخذ من كل بيدر (كفة العلوية) للسيد محمد ابو شراره. فقد كره كل منهم ان يكون البادئ بالمعارضة، والمسبب لقطع رزق (ابن) رسول الله. وانكروا اعطاء (كفة الكتابيّه) لملا محسن قائلين فيما بينهم: انه يكتب حسابات الشيوخ وليس حسابات الفلاحين.. فلماذا ندفع اجره من لقمة عيشنا؟ لكن احدا منهم لم يجاهر برأيه، امام فالح بن سعدون، واكتفى بعضهم بالهمس:

– هاي ينراد الها ولد نشمي مثل ناصر بن حسين يوكف بوجه فالح ويبهذله... لكن مدري ليش ساجت.. لهسا ما حچا؟!

بوشر بقسمة الحاصل، واخذت الكتابيّه اسوة بأخواتها، وغدت تلك الرسوم أشبه بالقوانين النافذة، بعد يوم واحد من فرضها، ثم شملت الى جانب هورة البترا ديمة خلف وبقية الديمات.

*　　*　　*

يوم احست (صالحه) ان الجنين نبت في احشائها، راحت تفكر:

اذا كان العرف يقضي بأن على (الفصلية) ان تنجب طفلا في بيت (المفصول) من ثم يحق لها الطلاق.. فها هو الطفل ينمو. ويتحرر عبيد من سجنه –بهذه الطريقة او تلك –يقولون ان موت الملك وميلاد طفل للملك مناسبتان (للمراحم).. فياربي وانا المظلومة.. ودعوة المظلوم مستجابة – كما يقول السيد الروزخون –اسألك بظلامتي ان تجعل مواليد الملوك مثل توالد الارانب وموتهم مثل موت الدجاج.. والا فليهرب.. اهرب يا من لا يستعصي عليك جدار ولا ترهب الموت.. غادر سجنك وتعال –لأغادر سجني الكئيب.

كان زوجها صغير السن، نسبيا، هادئا لدرجة المسكنة.

حسبت هدوءه في الاشهر الاولى يعود الى حزنه على اخيه، لكن طبعه لم يتبدل، ولم يزايله الهدوء مع زوال آثار الحزن. بدا لها وكأن معشره لا يضايق. ولا تمضي وقتها رتيبا مملا الى جانبه.

* * *

تأهب الشيخ سعدون لزواج ولده. اخذ على نفسه ان يجعل من عرس فالح مظاهرة ضخمة، لدرجة يقال معها: انه العرس الاول في كل شيء. أوعز لشباب القرية بممارسة مظاهر الفرح قبل عشرة ايام من موعد (الزّفه) وقبل الموعد بثلاثة ايام احضرت جوقة الكاوليه. فأستاء الكهول والشيوخ، وتهامسوا اسفين:

– يا حيف واللّه يا حيف.. كاوليات تركص بمضيف مهلهل!

وزفت هلالة بنت صلال بسيارة، رغم قصر المسافة بين القريتين، فكانت سابقة لا مثيل لها في الريف كله. كانت حسنة بنت سعدون بين النساء اللواتي يحطن المضيف لمشاهدة رقص الكاوليات. انفردت بصديقتها صالحة بنت ابو البينه فتفجرت ينابيع العواطف بعد خمول.. تحسرت صالحة وقالت:

– انكتب علينا جواز الغصب.. مدري شنهو ذنبنا عد اللّه؟

– اسكتي! فكينا من سالفة اللّه –بعد عيني عينه –وين البطلي يصاحبه! – مصايب.. ما سدت على اهل البيت..

– طين خاوه المصايب.. مرّت على كل راس.. حتى هاي..

كانت تشير بلفظ (هاي) الى عروس اخيها، التي شاع خبر عشقها

لشاب في قرية صلال، واستدركت حسنة متعجبة: ولكنها سرعان ما انسلخت من حبها وكأنه (سلاب حيّه) خلفته في قرية ابيها واقبلت على العرس بروحها وجسدها، حتى لتبدو الفرحة في كل خيط من ثيابها! في حين اجد نفسي أسيرة الحب الاول.. كل شيء يذكرني بناصر. وضمت طفلها بحنان الى صدرها وحين لمحت (ناصر) ينهض وسط الديوان، ليفسح المكان لقادم جديد. ارتجفت ثم احست بالوهن، فقالت لصديقتها:

- الزميني كبل ما اطيح، مدري اشبيّه كلبي چنّه طير مذبوح..

كان غناء الكاولية شجيا مؤثرا، فتأججت كوامن الحب العارم، وبعثت الرغبات عنيفة. فساءلت نفسها: وبأي عذر سأطلب لقياك؟ قلت لصالحة ذات يوم اريد مواجهته للتحلل من عهد الحب الذي ارتبطنا به. فما عذري الآن؟ وكيف؟ واين؟ ومع ذلك فقد اصبحت هي الاخرى لاحول لها ولا قوة بعد سجن عبيد.

ثم توجهت اليه بالعتاب: انتظرتك ولا زلت.. توقعتك في كل ليلة (تنسف الكلّه) وتتمدد الى جانبي كما كنت قبلا. أتحسبه مخيفا.. يحول بينك وبين الزيارة التي طال انتظاري لها؟ ام تراك سعدت بزواجك فنسيت؟

تناغم صوت الكاولية مع وتر الربابة -عبث الطفل بثديها -تذكرت يوم جاءت الى اهلها لتضع مولودها البكر.. وتساءلت امها بقلق:

- اخاف ناگص حسابه..

وراحت تعد على اصابعها مغمغمة:

-گولي.. وچن الله غسم بليلة الزفة.. ايه.. ربيع وجماد وجماد.. لكن..

وحين وضعته سليما معافى كامل التكوين، اندهشت امها.. واعادت

حساب الاشهر على اصابعها ثم اعلنت:

- ناگص شهرين.. لكن عافيتچ زينه وصار الولد تام..

استبدت بها العواطف، حين ارتفع صوت احدى الكاوليات ببيت مؤثر من (شعر البنات) اعجب المغنية نفسها، كما يبدو، فرق له صوتها، والتمعت بحّته تثير الشجون اكثر مما تطرب:

ما ظل عدل بعضاي حي وارتجي اعليه

كل هذا ما خلّيت شامت يحس بيه

بكت حسنة بصوت مخنوق واجهشت صالحة بحرقة ثم جذبت صديقتها لتنهضها وقالت:

- امشينا انشوف النا مچان ونبچي على كيفنا، حتى نستراح.

الفصل الثامن

وقف عبيد في المكان الذي سقط فيه القتيل وتساءل: كم تبدلت معالم الارض؟ واضحى الطريق محدودب الظهر كأنه شاخ بفعل السنين، من حمل التراب لتعليتك يا ملعون؟ وقد امضيت السنين هناك أحمل التراب على ظهري لنبني سدا يحمي المدينة والزرع من الغرق. اليس هذا مضحكا –لو كان الضحك سهلا؟ وحاور نفسه بتهكم:

ياحامي الطرق والمدن من الغريق ما الذي دعاك للتسكع هنا وفي هذا المكان بالذات؟ ألا يكفي عذاب حفنة سنين؟ كفاني ايتها الذكريات –لا تطلّي، كفّي عن مطاردتي.. لقد دفعت الكفارة اضعافا مضاعفة. ادار ظهره للمكان وخطا على مهل، متحسسا آثار القيد على ساقيه: أما زالوا يدعونني المنتاز؟ عبيد المنتاز.. كان الضحك (بلاش) بلابوش دنيا يا خلف!

تثاقل في مشيته عند مشارف القرية، وطوقها بنظرة شاملة، وراح يتذكر: لم تعد كما وصفها احميد ابو البينه –قطيع معزى يتقدمه خروف ابيض، انعكست الصورة وأضحت البيوت من الطين والقصب. مضيف الشيوخ وحده يفرض وجوده. ويشمخ القصر في مكان حوش الطين. من تلك الزاوية طالما لمحتها.. وترى اشارتي.. واتسلل الى (صيرة) اهلها. ترى اي المضختين هي الجديدة؟ ولكنهم شيدوا للاولى حجرة من الطابوق شأن الثانية. ولم تكن ثمة اشجار على الشاطئ. لابد انها غرست في وقت واحد مع حديقة القصر. لقد غرسوا وأكلوا الثمر.. ولم تنبت بذورك ايها القلب العقيم.. وفي اي جهة من القريه موقع بيتها؟ ما الذي ستقولينه لحظة تسمعين الخبر (عبيد طلع من السجن)؟ اتمنى لو اعرف مشاعرك يا صالحة. اما انت يا امي الحنون لو كنت على قيد الحياة لأمتلأ الفضاء

بالهلاهل..

تحسس ساقيه ثانية، وواصل سيره الوئيد. انزل (الصرة) من على كتفه، وضعها في (كوسر) المضيف.. ثم دخل على استيحاء، وشيء من الخوف لم يعين مبعثه، جعله يتمنى خلو المضيف الا من ابيه.

كانت مفاجأة للاب لم يتغلب عليها.. اغمي عليه لبعض الوقت. تنسم عبيد هواء القرية، وفغم انفه عبير القهوة.. ودخان الوجاق، يتميز برائحة كاد ان ينساها لم تعد آثار القيد تشغله لولا تحية قادم ونهوض وجلوس. ادار عينيه من وراء الدخان، فانكر كثيرا من الوجوه.. وحاور نفسه: من كانوا مردا نبتت شواربهم وطالت.. وابيض شعر الكثيرين ممن خلفتهم شبابا –المضيف وحده ما زال يحتفظ بسواد شعره.. ذلك لانه بلا قلب!!. تلمس عقاله الضامر، الذي ينتسب الى مرحلة تجاوزها الناس وصاروا يلبسون (العگل) الغليظة، وقد لفت انتباهه رجل يتبختر في مشيته.. بدا وكأن العگال زائدا عن حاجته، ولولا مشيته الوئيدة لسقط العگال جانبا. فتساءل عبيد في سره: من هذا الذي يمشي وكأنه مدير السجن.. ويضع العگال جانبا مثل (سدارة) رئيس العرفاء؟ سرعان ما تذكره: انت فالح.. يا صديق الشباب..

هب الحاضرون وقوفا قبل أن تطأ قدماه عتبة باب المضيف. فأستقبله عبيد.. صافحه وطبع قبلة على خده (كان مكانها الصحيح ظاهر كفه – هكذا افهمه ابوه فيما بعد –) تفحص صديقه القديم: انهم يدعونه الشيخ – ويخاطبونه محفوظ.. لا بأس. لحظ امتلاء جسمه الى حد الترهل. وحيوية تعبر عن نفسها من خلال النظرات المتسلطة ونبرة الصوت والضحكة

المجلجلة.

هكذا؟ ولا حتى سؤال.. بل إنه اهمال متعمد..؟

نبهه ابوه ان يسارع لاستقبال الشيخ سعدون خارج المضيف. احس حرارة اللقاء.. قبله سعدون. وقال (هله بيك.. هله بيك..) فخاطب فالحا في سره: كان ينبغي ان احس حرارة لقائك ياعديم الوفاء..

سأله الشيخ سعدون:

- اشلونك يا عبيد؟

- اللّه يحفظك (سيدي)

ضحك فالح بصلافة وعقبّ:

- هم زين ما كلت اللّه يحفظك عريفي!

برر الشيخ سعدون هفوة لسان عبيد، بتحكم العادة، نتيجه احتكاكه بأدارة السجن. خجل عبيد من سخرية فالح فعاتبه غاضبا في سره: تتصيد العبارات ضدي يا اعرف يا متغطرس اي علاقات مجنونة بين زوجتك وبين عشيقها ولن اتردد في المبيت معها على فراشك -لو اتيحت لي الفرصة.. كما بات ناصر مع شقيقتك (المحصنة).

كان يتوقع السؤال في اية لحظة، ومن اي كان، عن حياة السجن والسجناء، وبه شوق لاعلان خبر تنصيبه مراقبا على (القاووش) منذ سنتين.. لكن الحاضرين لا يجرؤن كما يبدو، فتساءل في سره: حتى الكلام وقف على سعدون وهذا الرقيع.. واحسب ان الضحك صار من المحرمات.. ألم يقولوا ذات يوم (الضحج زادنا)؟ فما هو زادكم يا خلف بلابوش دنيا!؟

اجال الشيخ سعدون بصره في الديوان، ثم سأل عن السيد محمد ابو

شرارة. فأجيب انه لم يأت بعد. امر عبيدا بالذهاب الى بيت السيد ليصحبه من هناك الى اهل القتيل، لغسل قلوبهم بالتحية، تأكيدا لنسيان الماضي.

نهض عبيد ثم وقف حيث هو، كأنه ليس للمضيف بابا يخرج منه. بادره سعدون بالسؤال عن سبب تردده. فأعترف عبيد، خجلا، بأنه قد لا يهتدي الى بيت السيد.. ضحك فالح مرة اخرى. واشار سعدون بأصبعه الى صبي يجلس القرفصاء عند الباب، وامره بمرافقة عبيد.

سأله عبيد في الطريق:

- ابن من انته؟

- ابن سلمان الحميد.

- شسمك؟

- داود

هم بسؤال عن عمته صالحة وبعد ان تفرس وجهه استدرك وقال لنفسه: لقد تجاوز عهد الطفولة والبراءة ويبدو شيطانا اكثر منه انسانا ولم العجلة؟ بعد دقائق اصل بيتها ونظرة واحدة تفصح عن كل ما في الصدور.. كانت تقول اكثر من عبارة بنظرة واحدة.. وتعرف ما الذي اريده بطرفة عين. مشاكل العالم كلها لا يمكن ان تأتي على الحب الذي في قلبها —وبقية منه تكفيني.

قطعت الطريق فتاة ممتلئة تحمل جود ماء: لم ار الجود ولم ار لفة (الوزار) منذ دهر طويل (متونس بدنياك عونك يهلجود —شيلك على الورچين وحبلك على انهود) ولها طريقتها الخاصة في لف الوزار.. ويا لروعة حركة ردن العباءة على وركها هل عبث الزمان بذلك القوام الرائع يا

صالحة؟

صحبه السيد ابو شرارة الى بيت خضير، زوج صالحة، فلقي ترحيبا وديا وسمع كلمات دافئة: كل شيء قد طواه النسيان وان هي الا ساعة شيطانية.. ولا يشك احد الآن في ان الحادث ابن دقيقته غير مدبر.. ولم يكن ثمة سبق اصرار.. اعتبرني صديقك وقريبك وسندك في قادم الايام. ثم صوت على زوجته:

- صالحة. هذا ابن عمچ عبيد. تعاي سلمي عليه.

كانت ترتعش كالمقرورة، منزوية في ركن البيت، تحتضن طفليها، مثل دجاجة تجمع افراخها تحت جناحيها لحظة يمرق جارح في الفضاء.

تمنت لو يكون ولدها الثالث لحظتئذ في البيت فينضم الى اخويه.

نهضت بأرتباك متعثرة. قصدت الربعة. وقفت عند الباب. تحاشت النظر اليه. حيته بصوت مهزوز، لم تتوضح نبراته..

غادر الربعة مفكرا: ما معنى حمل الرضيع على صدرها وتقتاد الثاني بيدها؟ اهو كلام ارادت قوله..؟ لم اتبين وجهها ولم اقرأ ما في عينيها ولكن صوتها..؟ هل ارادت القول انظر ولكل شيء نهاية؟

وقف على جرف الغراف. استعاد معالمه القديمة: لقد كان يحصر القرية كالهلال.. ابتعد من هناك واقترب كثيرا من المضخة حتى اضطرهم لتكسية السد بالحطب. كانت بينه وبين المضخة مسافة.. لقد حفرنا المجرى بصعوبة يومذاك. لئن غيّر شط الغراف مجراه ابتعد من مكان واقترب من آخر فلم لا يتغير قلب صالحة؟ ويهملني فالح على نحو مقصود؟ لقد مر زمن طويل.. طويل جدا.. والزمن كفيل بتغيير كل الاشياء وحتى القلوب.. يالها من حكمة

رائعة كنت ترددها يا خلف –بلابوش دنيا –لقد مر زمن طويل ومن حق الغراف ومن حق صالحة وحتى فالح بن سعدون وكل الاشياء من حقها ان تتغير.. ويتعين على هذا القلب ان يتغير.. ولابد من التغيير كلية.

شارفت الشمس على المغيب، فوقف يتملاها! منذ متى لم ارها تنعكس على صفحة الغراف؟ لم يكن يستهويني مثل هذا المنظر.. لقد تغيرت، انا الآخر، دون علم مني!!

نزلت الشاطيء امرأة. مدت ساقها في الماء لتغسله.. لاح له الساق بضا يلمع تحت اشعة الشمس المحمرة. تحلب ريقه. وساءل نفسه: هل فات الاوان؟ الظفر بامرأة حقيقية في متناول اليد التي تحمل من المال ما يغري اهلها او في الاقل من يملك عنفوان الشباب.. وانا خالي الوفاض من كليهما

فتل شاربه، دونما اعتزاز به، ثم اشعل سيكارة، وشيع المرأة التي غسلت ساقيها بنظرة شرهة. وعاد يرقب قرص الشمس الذي اتسعت دائرته، وبدأ يلامس الموج.. ثم تأرجح قرص الشمس مع حركة موج الغراف. واخذ بالغوص رويدا رويدا

تعين عليه ان يعود الى مضيف الشيوخ: فحاور نفسه: اما وقد هجر والدي بيته.. واتخذ المضيف مسكنا فبالتبعية سيكون المضيف مسكني ياله من (قاووش) كبير؟ ذلك امر لا محيد عنه. ما دمت فارغ الجيب. فرغيف الخبز سيف ان لم تكن قبضته بين اصابعك فشفرته مسلطة على عنقك. واذا ما بقي حالي هكذا..

فمعنى تحرري من السجن مجرد الخروج الى ساحة سجن اكبر..

ومثلما حال السجن بيني وبين صالحة من قبل سيحول بيني وبينها. هذا الجدار السميك من الاطفال الذين تدرعت بهم وهي تلقي تحيتها متوثبة. ولم ار ابتسامة فالح كما لم ار ابتسامة المدير طيلة سنوات سجني، يتحتم عليَّ –ان احفر بئرا بأبرة. ابدأ من الصفر. والا فمن قاووش الى قاووش اكبر. ومثلما ضحكت وتزلفت (السرهنك) واصبحت مراقبا سوف اتزلف من هو اهم عليَّ ان احتمل فالحا واحمله على مودتي. واحسب ان اليدين خلقتا لتتحركا فأما على زناد البندقية واما للطبطبة على الاكتاف، ولقد جربت الاولى وتجرعت مرارتها بما فيه الكفاية.. وعليَّ ان اجرب الثانية فربما تذوقت حلاوتها!

* * *

بعد خلو المضيف من سمّار الليل الصق غافل فراشه بفراش ولده، وتمددا يتهامسان.. تذكر عبيد ردهة السجن وازدحامها بالسجناء وقال لنفسه: ولاول مرة بعد عمر طويل تحتل هذا القاووش الكبير بمفردك. كاد ان يضحك: لو كان في ينبوع الضحك قطرة يا عبيد. طرح اسئلة على ابيه، كيفما اتفق، شرع الاب يجيب بأسهاب، يستطرد فيبلغ احداثا لا علاقة لها بالسؤال.. واحيانا ينسى السؤال.. ويكرر روايات سبق لعبيد ان سمعها في المواجهات الشهرية: واما حمزة الخلف فقد تزوج شقيقة خضير زوج صالحة (لو حدثتني عن صالحة دون سواها) ورزق ناصر بن حسين بطفلين قبل ان يرحل الى مدينة الكوت اثر شجار عنيف بينه وبين فالح بن سعدون حول قسمة الحاصل.. ومع انه تجاسر كثيرا على ابن سعدون، لكن الفلاحين يتذكرونه بأحترام.. ويكنون له الود.. وكان لابد من رحيله..

لقد عوضه الله عن (الفلاحة) بأحسن منها فهو الآن يعمل في سدة الكوت ويكسب اجرا جيدا وآلت ثروة احميد ابو البينه بعد موته الى ولده صالح ويبدو اكثر بخلا مئ المرحوم وقد تضاعفت اغنامه (تحدث عن صالح وانعطف بالحديث الى صالحة.. اليس بمقدورك ان تخفف عني هذا الحزن الثقيل) وعلى ذكر الغنم إشترت هلالة بنت صلال زوجة فالح

(اعرفها جيدا حدثني عنها عشيقها في غابر الزمان.. وقد اخذت على نفسي عهدا بمضاجعتها على فراش الشيخ فالح حتى لو بقى من عمري يوم واحد.. لأثلم غطرسته.. واجزيه عن عدم وفائه..) مائة راس غنم في العام الماضي واودعتها مع غنم صالح ابو البينه (هكذا تلعب بي مثل (الهوله) بين صالحة التي احبها وهلالة التي اشتهيها..) وعلى ذكر هلالة تقول عنها ام فالح: لو كان بمستطاعها بيع (طابوگ) القصر لفعلت. ان لها يدا طويلة وأساليب شيطانية –نعوذ بالله –للاستحواذ على المال. وان لها سلطانا على زوجها، هو بلا شك نتيجة عمل سحري محكم (انها بشارة خير.. فأذا كان مسلكها يعتمد السحر والشياطين ولها يد طويلة وما الى ذلك من النعوت فسوف احقق امنيتي عما قريب.)

أما زوجها فقد اصبح هو الشيخ الحقيقي يتصرف بالمقاطعة كيفما شاء. حتى شل يد سعدون عن العمل.. تصور انه يجلب الكاوليات الى القصر ويبقين حتى مطلع الشمس ويتظاهر الشيخ سعدون بجهله لما يحدث (وهذا يعني انه مشغول عنها وسوف تكون مهمتي اسهل) وانا على ثقة بأنه عليم بشرب فالح للعرق. واما حسنة بنت الشيخ فقد انجبت ولدا وثلاث بنات من ابن صلال وتشكو امها من سوء علاقتها بزوجها (اعرف

الاسباب.. واقطع ان الولد والبنات هم اولاد ناصر وليس اولاد شعيبث وانا على استعداد للرهان بأن ناصرا يتسلل اليها كل ليلة حتى وهو في الكوت.. ان له قلب اسد وخفة ثعلب) واما ابن سعدون الآخر فهو الآن يقيم في المدينة عند الحاج محمد شريك الشيوخ بالمضخة الجديدة.. ويقال ان فيصلا.. سينهي الدراسة الثانوية عما قريب وبعدها يدرس في مدرسة يتخرج منها (قيمقام) او على الاقل (متصرف).

* * *

استيقظ غافل مبكرا صلى ركعتي الصبح على عجل. نهض عبيد من فراشه توجه نحو مشرق الشمس. تمطى مرارا كان مزاجه صافيا. مد بصره الى كل الاتجاهات. استشعر فرحة، وقال لنفسه: ولا جدار يحجب الرؤيا هذا وحده يكفي سببا للاستبشار بالحياة الجديدة. اصغى لصياح الديكة. ونهيق الحمير وخوار البقر. وكان يستزيد مستمتعا تركز انتباهه حول صوت المضختين.. استطاب تناغم صوتيهما ونشوز واحدة عن الاخرى من آن لآخر. ثم انصرف الى صوت الهاون وقد بدأ ابوه يوقع لحنا، كان لا يحسنه الا سعدون نفسه. وتزايد اللغط في القرية وانعقدت سحابة من دخان التنانير فوق الاكواخ. فحاور نفسه: وهي واحدة من بين الخبازات ما اعذب خفق الاكف وهي ترقق العجين. آخ يا صمون السجن الاسود.. اقبح ما في السجن صمونه الاسود.. كل شيء في السجن ردئ

-يالقبح التعداد الصباحي..

لقد كنا ثلثمائة سجين نصطف كالغنم وكنتم ثلاثة لم تتراجعوا عن قراركم بعدم الحضور مع (المصطر) للّه دركم. انتم الرجال الشجعان اما

نحن فقد كنا نتحرك كالغنم يسوقنا رئيس العرفاء بعصاه.. ليتني اعرف من اين تستمدون شجاعتكم وليس بينكم قاتل او سارق.. مجرد افندية.. اصواتكم مثل اجسامكم رقيقة ناعمة.. ولم اكلف نفسي مهمة التدقيق في اقوالكم عن مساواة الناس.. تناهت اليه دعوات الفلاحين الصباحية: (اليوم يومك يا علي.. اصبحنا واصبح الملك للّه..) فأقتحم ذهنه خاطر طائش.. وردد الدعاء في سره: (اصبحنا واصبح الملك لبيت مهلهل) استعاذ باللّه من الشيطان الذي أوحى له بهذه العبارة الصبيانية.. تذكر استغاثة ابيه في الليل من كثرة العمل الذي ينتظره في الصباح حين اعلمه:

- باچر تجي هجنه..
- مگصدك لجنه؟
- يمكن.
- شتسوي؟
- ايگول الشيخ اتخرّط الگاع.
- اتسوي الها خرايط؟
- يمكن.

اخذ على نفسه مهمة كنس المضيف.. فيما انصرف الاب لجلب الماء من الشط.. حمل صفيحتين تتدليان من طرف عمود، وكأنهما ميزان. وعاد العجوز ينوء تحت ثقلهما، وقد ابتل ثوبه تماما اشفق عبيد على ابيه، فتناول الصفيحتين وافرغهما بالكوز الكبير.

هرول غافل بعد ذلك الى حوش الشيوخ ونقل السجاد لفرش المضيف على نحو غير اعتيادي:

– ابني.. ابني.. سوّه افراش حكومه.. ابني اريدك تبيض وجهي.

تمنى لو يصاحب ابيه الى الحوش لنقل السجاد، او يقوم بالمهمة لوحده عله يلمح زوجة فالح بن سعدون. وسرعان ما عدل عن رأيه مؤملا سنوح الفرصة في مناسبة اخرى.

* * *

اعجب فالح بن سعدون بخفة عبيد ومهارته، وهو يوزع كؤوس (الشربت) واللبن واقداح الشاي على رئيس لجنة التسوية واعضائها، ثم القهوة فيما بعد. وتجلت براعته في صف مواعين المرق والحلوى وتوزيع صحون اللحم في الاماكن المناسبة على المائدة.

اقترح رئيس لجنة تسوية حقوق الاراضي، بعد الغداء مباشرة، ان يقوم بجولة استطلاعية للتحقق من معالم المقاطعة على الطبيعة. فبادر فالح بن سعدون يرد اقتراح الرئيس: اذا اتعبت نفسك في العمل هذا اليوم فمن يسهر مع (بتّه)؟ وذكر الاسم همسا مع ابتسامة مقصودة. فكان لاسمها فعل المخدر بالنسبة للرئيس الذي عرف بولعه الشديد بالكاوليات.

تصنع الشيخ سعدون حراجة الموقف، لان الحديث يدور حول الكاولية وهو الوقور المتدين، واغتنمها فرصة سانحة للانصراف، فأطلق ضحكة باهتة وقال للرئيس:

– بيگك آنه شايب.. تعفوني من گعدتكم. هذا خادمك فالح شاب مثلكم.. ايلوگ الكم وتلوگون له.. آنه اروح للمضيف يم ربعي الفلاليح!

وعمل سعدون بهمة لا تدانيها همة الشباب: بعث من يحضر صلالا على الفور. ورسولا آخر الى قرية (العلوه) ياتيه بخلف واولاد صگر. ثم انفرد

بغافل لبعض الوقت ولقنه عبارات يقولها غدا امام اللجنة. وفعل الشيء نفسه مع ولدي احميد ابو البينه.

* * *

كان خلف، على طول الدرب، يمازح اولاد صكر مرددا: (عزيمه يوچوي احصان.. عزيمه يوچوي احصان..؟) فيجيبه سويلم الصكر: (كلبي لا سبني چنها چوي احصان!) وينصحه خلف بأن لا يتأثر بآراء حسين المتطرفه ضد بيت مهلهل.. يتشكك في كل فعل او قول يصدر عنهم.

* * *

رحب سعدون بمقدم خلف واولاد صكر وسارع يستفسر، بلهفة، عن صحة حسين ومزاجه. ففكر خلف على الفور: ابن مهلهل ذهب تيزاب لن يصدأ ابدا ليس بمقدوره التخلص من مودتنا وعشرتنا الطويلة -انها (عشرة) العمر انها تعاوده كحنين المدخن الى التبغ بعد انقطاع طويل. وحين فرغ من لفيفة التبغ اخرج الزناد.. وسحب الفتيلة الى اعلى ثم نفخها قبل ان يقدح.. فضحك سعدون وقال:

- هاه.. جنّه صار ابو نفخه؟!

ومد يده الى جيبه، فأخرج قطعة معدنية مربعة الشكل، تلمع كالفضة المجلوة، واومأ لخلف بالاقتراب منه. ولما حاذاه خلف ضغط بأصبعه على الكتلة المعدنية المربعة فانبعجت من جانب وارتفع غطاء من اعلا وتصاعدت شعلة نار.. حدث ذلك مرة واحدة. دهش خلف، وظل يراقبها بفم نصف مفتوح. قال سعدون بلهجة انتصار:

- هذا الشغل. موش ازنادك ابو نفخه!

ثم ناوله الزناد، شارحا كيفية استعماله..

اوجس سويلم الصكر خيفة، وردد في سره: (يا يمّه..!)

لقد فعل مثل هذا يوم جئنا نحتج على تعيين (شحنه) يراقب الديمات.. وخدع خلفا بزناد. ان اللعبة تتكرر (اللّه يستر من تاليها).

قدر سعدون ان تصرفه هذا بحاجة الى ما يبرره، ويبعد الشبهات عن مقاصده فقال لخلف:

- يا سبحان اللّه.. كلما اشوف زناد جديد بدكان يوعد واحد - اتذكرك. اول ما شفت هذا الزناد بالدكان تذكرتك واشتريته.. گلت هذا بعده ما داير بولايتنا، يشتغل بالبانزيم وبالنفط.. لازم آخذه لخلف.. خلف لازم دوم عنده زناد جديد.. محد شايل مثله..

ضحك خلف ببراءة. سر لهذه الالتفاتة الكريمة. وحاور نفسه:

ان البرود الذي ينتاب علاقتنا هو من صنع حسين. ولكنه سرعان ما يزول.. وان هو الا سحابة صيف. ولا يبقى الا الود القديم يفرض نفسه ويطرد كل ما هو طارئ.

نهض سعدون اكراما لصلال.. فأستاء خلف لمقدمه وقال في سره: (لا هلا ولا مرحبا هم حضرها الخبيث صلال؟!) وبعد خلوة قصيرة بين سعدون وصلال رجع سعدون واتخذ مكانه جوار خلف.. ثم اومأ لاولاد صكر فأنضموا اليهما وشرع سعدون يتحدث بصوت خفيض: لقد بذلنا جهدا مضنيا للتفاهم مع رئيس لجنة التسوية.. ودفعنا له مقدما مبلغا كبيرا من المال.. وندفع ضعف ذلك بعد اجراء التسوية.. والشيء الجوهري في هذه القضية، كون الاتفاق ينص على تقديم مبلغ معين من المال عن كل

قطعة ارض في المقاطعة.. بالنسبة لي ولصلال، وتجنبا لدفع مبالغ طائلة (والتفت الى اولاد صكر) اريدكم ان تبرزوا وصولات الضرائب القديمة عن ديمتكم وتقرون امام اللجنة بأنكم دفعتم الضرائب نيابة عن صلال. وانها كانت ولا تزال جزءاً من ارضه.

والتفت الى خلف وقال بدالة ظاهرة:

- وانته اتگول چنت ادفع الضريبة بدال سعدون بن مهلهل.

ثم بدل نبرة صوته وهو يوضح: وان هي الا اجراءات شكلية، لا تمس حقوقكم الاساسية بشيء..

فوجئوا بالطلب غير المتوقع، وعلى الرغم من مقدمة سعدون لحديثه فقد استبدت الشكوك بأولاد صكر ولكنهم انتظروا كلمه خلف فأذا هو يعترض على مسألة تبديل اسم الديمة الذي اراده سعدون، ان يكون اسمها (هورة السرابه) بدلا من ديمة خلف. وليس له اعتراض على الاقرار بكونه يدفع الضريبة نيابة عن بيت مهلهل.

ضحك سعدون وقال:

- يا خويه غابل اللجنه جاعده ويانا بالبيوت وتمنعنا من كولتن (ديمة خلف)؟ هاي ترتيبات حكومه.. اتروح وي لجنتها نعلة والديهم.. احنا كلمن على وضعه... تشبث اولاد صكر بأعتراض معقول لا يكشف صراحة عن مجابهتهم لسعدون، وهو انهم على استعداد للاقرار بان الديمة كانت جزءاً من ارض بيت مهلهل اسوة بأقرار خلف. ولكنهم يرفضون القول انها جزء من ارض صلال. فتساءل سعدون بنبرة حادة:

- تظنون بي غير ظن؟ غابل اطي گاع اخوتي للغريب؟ لكن هاي شغله

حكوميه بيها سر.. ما اكدر احچيه هسا..

فبادر خلف يؤيد قول سعدون:

- ابن مهلهل لو يعرف بيها مذرّة ما ايسويها.. ابدا ما يطّي كاع اخوته للغريب.. اللّه وكبر. هيچ توصل الامور؟!

وحين عادوا الى قريتهم راح خلف يردد ضاحكا:

- لا هي عزيمه ولا هي چوي حصان..!

* * *

نهض غافل قبل موعده، ليهيء قهوة الصباح في المضيف، ويذهب الى حيث امره الشيخ.. صاح ثانية ليوقظ ولده:

- اگعد بويه، اگعد. ما ظل عدنا وكت.

- بويه دنيا فجر.. بعد وكت. هسه نمت.

- اگلك اگعد ما ظل وكت.

- بويه هذوله هسه ناموا.. جانوا سكارى ويرگصون وي الكاوليات الليل كله.. بعد ثلث ساعات.. اربعه ما يكعدون.

- انته تعرف شي وآنا اعرف شي. ما دام الشيخ گال اغبشوا لازم نغبش.

فرك عبيد عينيه، وغالب نعاسا شديدا ثم نهض متعثر الخطى.. فعاجله ابوه بلهوجة:

- يا اللّه يا اللّه.. نتريگك عند بيت خلف ونتتذر الهجنه.

تعين على عبيد ان يرجو والده التمهل في مشيه. كان يجد صعوبة في اللحاق به. لم يتخلص كلية من آثار القيد على ساقيه. وفي رأسه وشوشة

من بقايا كؤوس احتساها خلسة ليلة البارحة، لمجرد معرفة مذاق هذا الشراب الذي أسقط وقار رئيس اللجنة والشيخ وبقية الافندية وجعلهم يرقصون مع الكاولية على ذلك النحو المضحك. وفكر عبيد نادما: اوشكت على ارتكاب الحماقة بعد منتصف الليل. والآن ادركت ان للحماقات طريقا آخر غير فوهة البندقية. لقد نهرتني بعنف حين امسكتها بأشتهاء.. لو شربت مقدار ما شرب الافندية لاغتصبتها عنوة مددتها فوق صدر فالح بن سعدون. واكبر الحرائق من شرارة واحدة. ما احلاها وهي تهز الردفين. لن اعود ثانية الى مثل حماقة البارحة. احس التعب وهو يجاهد للحاق بوالده، فسأله مستغربا عن اسباب تعجله:

– يا بويه ما اتگلي ليش مستعجل؟ هذوله بعد ساعتين ما يگعدون من النوم.

– واللّه يا بويه آنه هم ما ادري ليش مستعجل.

ثم تحسس الوصولات في جيب الدشداشة، عند الورك، وتأوه قائلا:

– اويلاه يعبيد يبني.. كون اكلهم هاي أدويمتي وذني وصولاتها.. وكون ايغيدونها بأسمي..

– چا ليش ما اتگلهم؟

– احوه! احوه!.. چا والشيخ شيگول؟!

– چا ليش تحچي.

– هيچ. خبرك تمنّي!

– انته وي الشيوخ ميت بيد امغسّل!

– على ما عدّيت يا بني.. يو مثل ما ايگول مرحوم احميد:

حريم وتحت خيمتك يا كريم!

وعاود المشي بخطى سريعة. اجتهد عبيد ثانية للحاق به، فلم يفلح. قرر ان يعيق سبيله بأسئلة.. وقد عرف ميله الشديد للاجابات المسهبة. ابتدأ بملا محسن، وقد رآه ليلة البارحة يتصرف بدالة كبيرة على الشيوخ، ويحظى بأحترام فالح بن سعدون وصلال على حد سواء. ورأى ولده ملا علي يغمز فالحا بعين واحدة، بلا كلفة، فيرد له الغمزة بمثلها اجاب الاب بشهية متفتحة للكلام. اضحى ملا محسن مسؤول مالية الشيوخ.. ومركزه يزداد اهمية مع ازدياد مدخولاتهم. ويخيل الي ان نجم ملا علي يصعد مع صعود نجم فالح. وقد تزوج فتاة تمت بصلة قربى (بعيدة) الى هلاله بنت صلال زوجة فالح وكانت تتردد الى حوش الشيوخ بكثرة لكنها امتنعت فيما بعد. وقد اشاع الناس، نعوذ بالله، ان زوجة فالح ضبطتها معه في وضع.. نعوذ بالله (هذا افضل ما في الحديث. ومن الخير ان تستمر فيه على النحو الذي يسهل مهماتي القادمة..) وبسبب من صلة القربى – البعيدة –حيل بين الفضيحة وبين الانتشار. ولكن أهل القرية لكل واحد منهم زوجين من العيون والآذان ولهم انوف عجيبة تتشمم الفضائح حيثما وقعت –نعوذ بالله –

وبدا الاب ملمّا بفضائح القرية واشاعاتها لم تغب عنه صغيرة ولا كبيرة. اوردها كمثال على تعقب الناس لآثار الفضائح وتصيدها وكان يرويها.. (والذنب على من كالها) وينفض زيق ثوبه بعد كل رواية.

واما بنت ملا محسن فقد تزوجها محمد البقال. واما السيد ابو شرارة فقد تحسنت احواله بفضل (كفة العلوية) التي تؤخذ من كل بيدر في

المقاطعة، ولكن يبدو لي وهو مجرد حدس، ان السيد حسن الكربلائي ابن المرحوم سيد علي الروزخون هو منافس خطير للسيد ابو شرارة حول كيلة العلويه. بعد ان توطدت علاقات عائلته مع عائلة الشيوخ خلال سفراتهم لزيارة العتبات المقدسة، وبفعل الهدايا السنوية التي يحسن اختيارها للشيوخ وللشيخيات (وماذا عن المفلس الذي لا يستطيع تقديم الهدايا للشيخيات؟) وقد لا تعلم ان ضيدان الحائك توفي منذ سنتين وصار ولده سائقا لمضختي الشيوخ وتزوج بنت البقال..

تساءل عبيد عندما توسطا هورة البترا:

– چنهم شايلين من دارهم، اللي عرّس بيها ناصر؟

– شيلهم الفيضان.. وحطّوا بذيچ الصفحة.. هسا صرنا انسميهم اهل العلوه..

– الاحسن انروح لبيت حسين.. هذا واجب.. شتگول؟

– لا لا لا كلشي ولا هاي. الشيخ وصاني. گال كلشي ولا تمرّون على بيت حسين.

وتساءل عبيد: الا يثير وجودي في بيت خلف شجون زوجة حمزة وهي اخت القتيل؟ فرد الاب مهونا:

– اووه.. يا ابني بلت عظام الموتى وصارت تراب، وانزفت فصليه وترست البيت جهال.. يا ابني العدلين مشغولين عن الموتى بضيم المعاش.. ودولاب الدنيا ما امخلي الوادم تلتفت لا هيچ ولا هيچ.. دنيا.. مثلما يگول خلف.. بلابوش دنيا!

استقبل عبيد بما يناسب طول الفراق –حتى حسين سعى بنفسه وجاء

لتحيته.. وترك جودة شياهه وجاء لهذا القصد -تفحص عبيد وجوه الحاضرين فقال لنفسه: ليس بينهم غريب ولكن ملامحهم تغيرت وغطى الشيب كل نبتة في وجهي حسين وخلف اما حمزة فهو الوحيد الذي يصح عليه القول، عصي على سلطان التغيير هكذا كما كان نحيفا معتدل القامة وشعر وجهه مثل زرع السبخ. اما ملا نعمة فقد كبر اكثر مما ينبغي في جسمه وفي عقله.. يتكلم مثل كهل عركته الحياة.. يسلسل الاسئلة وكأنه ذاك الحاكم الذي استجوبني. ما هي حياة السجن؟ ما هي احاسيس السجين؟ ما الذي يتعلمه السجين من هذه التجربة المريرة..

واصغى الحاضرون بمن فيهم حسين لاسئلة ابنه الملا فكان عبيد يستعين، احيانا، بحركات يديه وتكوير جسمه: هكذا نجلس القرفصاء عند التعداد الصباحي.. ويخطر رئيس العرفاء.. يعد المسجونين كما يفعل راعي الغنم، مع فارق واحد -والتفت ناحية جودة، وقدم ابتسامة لقوله: لكن عمي جودة يستمتع بعدّ شياهه ويتألم لمرض احداهن، بينما السجين عندهم عديم الاهمية.. ليس اكثر من رقم.. ثم وصف عملية الجلد على المقرعة. فغالب الاب دمعة اشفاق لمحها عبيد فأستدرك يوضح: ولكنني لم اتعرض لعقوبة الجلد -والحمد لله -، بل اصبحت في السنتين الاخيرتين مراقبا لاكبر ردهة في السجن.

وبالغ في وصف المشقة التي لاقاها السجناء خلال اقامة السد الترابي حول مدينة الكوت، لوقايتها من الغرق، والسد المقابل للمدينة. ثم تعمد استدرار العطف على السجناء بقوله:

- وبيناتهم ساده اولاد رسول الله.. واجاويد اولاد حمايل.. وكل واحد

منهم هزّته ما يشيلها المطي تكرمون عن طاريّه!

توقف برهة ليبحث عن ادوات تعبير لاتنم عن اعجاب او انكار لموقف ثلاثة من السجناء اعلنوا العصيان على ادارة السجن وسببوا المتاعب للمدير ورفضوا حمل ذرة من تراب.. يزعمون انهم ليسوا سجناء...

تركزت اسئلة ملا نعمة حول هؤلاء الثلاثة..

ويجيبه عبيد: ان تهمتهم غامضة.. يقول المدير ان ملتّهم غريبة.. ويتساءل ملا نعمة! بسبب من غرابة ملتهم يسجنون؟

ذلك شيء لا يصدق، فالغرباء هم المتسلطون على رقاب المواطنين. حرك حسين مسبحته وانشد بيتا ناقصا، كي لا تفوت المناسبة:

الغريب امبربع بخير البلد

واحنا شربنا صار برنوطي!

بحث عبيد في زوايا ذاكرته، خلال فترة انشاد حسين، رفع كفه مباعدا بين اصابعها ليوقف تساؤلات الملا وقال:

- تذكرت.. تذكرت.. يكول المدير هذوله على ملّة (المسقوف) لم يكن تذكر لفظ (المسقوف) الا بمثابة غموض جديد يضيفه على السجناء الثلاثة. ادرك هذه الحقيقة بنفسه، قبل ان يستوضحوه، فأنبرى يكشف عن الجانب الذي عرفه عنهم مباشرة، وقال بلهجة تهكمية:

- يريدونها سوا.. لا غني ولا فقير ولا فلاح ولا ملاچ..!

تساءل الحاضرون بأنكار: ومن يعمل اذن؟ واجاب عبيد بنبرة من يقول (وذنبهم على جنبهم): يريدون توزيع الاراضي على الفلاحين بالتساوي. استوضح الملا: وكيف يتعاملون فيما بينهم.. وكيف يتصرفون ازاء

الآخرين؟ امسك عبيد ياقة سترته على نحو ما فعل ابوه، وهو يروي الفضائح، وقال:

- الشهادة للّه، امأدبين.. امكمّلين.. يفتهمون اهواي.. لوما هالسالفه الغريبه.

تساءل ملا نعمة: وهل فيما يدعون اليه منكرا...؟ اجاب عبيد، ولعله استظهر الاجابة من أحد، خلال احاديث دارت حول السجناء الثلاثة، داخل السجن: حين تعد الناس بأن السماء سوف تمطر ذهبا وفضة، فأنت لم تقل منكرا ولكن الناس يسخرون منك بلا شك. او لنقل اذا اعلن عشرة من فلاحي البترا عن عزمهم على سد نهر الغراف بمساحيهم، ايام فيضانه.. الا يصبحون موضع اتهام في قواهم العقلية؟ تعجل الملا في رده وقال:

- النبي بدا دعوته لوحده..

فضجت ربعة خلف بأصوات الحاضرين:

- استغفر اللّه.. استغفر اللّه.. هاي وين وذيج وين؟!

- أفا عليك هذا انته التفتهم.. تحچي هاي؟!

تراجع الملا على الفور وحاول توضيح فكرته: قصدت ان الدعوات تبدأها قلة من الناس. وما اردت المقارنة ابدا

خرج جودة عن صمته، لاول مرة، وقال:

- هذوله يحچون تسعه بالشهر! اللّه ما ساوا خلگه.. اصابعك كلهن سوا؟!

وعقب حسين بغموض:

- ايه.. كل سدر وبيه علم. ويتعبك المايفتهم.

استجاب عبيد لسؤال الملا، فتحدث عن حياة السجناء الثلاثة اليومية: يأكلون سوية.. وكل ادواتهم وطعامعهم وحاجياتهم مشتركة.. يجمعون الهدايا التي تصلهم في المواجهات الشهرية، بما فيها الملابس، وليس لاحد منهم ان يقول (هذا حلالي وذاك حلالك..) توقف خلف عن لف سكارته. اشرق وجهه بأبتسامة، ثم غمز اخاه بعين واحدة وقال:

- هاي بيها سبع احظوظ. كون اتصير الحسبه خلط وشّ.. ومثلات آنا وجودة نخلط كل موجوداتنا ونگرطهن سوا.. بلابوش دنيا!

ثم التفت ناحية غافل وقال:

- ومثلات ابوك يا عبيد يخلط موجوداته وي موجودات بيت مهلهل ويگرطونهن سوا

دخل الربعة صبي يلهث وصرخ برعب.

- اجتنا خيل.. راچبتها افنديه. وشرطة.. ووادم!

نهض غافل على عجل، وقال بأرتباك:

- الهجنه.. اعوينة ابو غافل.. الهجنه الهجنه!

ضحك خلف وقال:

- حتى انته عرفت الهجنه؟ بلابوش دنيا!

انتهى الجزء الاول من الرباعية

يليه الجزء الثاني

بلابوش دنيا!

تنويه

ســـــــقط سهواً في ظهــر غلاف رواية (الزناد) الفقرة التالية خدمة للحركة الثقافية.

لذا اقتضى التنويه